وتطويره وتحسينه ابنه **دُمِنيك دوق كسّيني***، الذي ساهم أيضاً مساهمة فعالة في رسم الخريطة الإدارية للبلاد.

وهكذا في نهاية القرن الثامن عشر لم تعد مسألة الإحداثيات وتحديد المواقع واردة بالمرة، بل أصبحت مجرد إجراء تقني يقوم به متخصصون في المسح ووضع الخرائط، بمعزل عن الجغرافيين الذين سيضطلعون بمهام علمية أخرى.

• الوصف : الوظيفة الإخبارية

إن آطلاع الشعوب على أحوال بعضها البعض وأخبارها لا يقل قدراً وأهمية عن مسألة تحديد المواقع وضبط المسافات وتدقيق المساحات، لذا عرف القدماء الرحلة وهي فنّ طَوَّره العرب ثم الأوروبيون بعدهم، خاصة خلال عصر النهضة في أعقاب رحلة **مارْكو بولو*** المثيرة التي دونها في «كتاب العجائب»، وهو مرجع نفيس يمكن اعتباره دائرة معارف جغرافية حقيقية. وهكذا شغِف الناس بهذه الرحلات أيَّما شغف، لكن دون أن يرقى هذا الفن إلى مراتب العلم.

غير أن الجمعية اليسوعية تنبهت إلى قيمة المراسلات التي كانت تتلاقاها من البعثات التنصيرية العاملة في القارات البعيدة، وفطِنت إلى ما يمكن أن تفيده منها لتطوير برامجها التعليمية والتثقيفية والتربوية. وهذا ما جعل التعاليم القديمة الأرسطوطاليسية تحتجب شيئاً فشيئاً[2].

لكن الأمر سيذهب أبعد من هذا في ألمانيا بحيث أخذ «**بِرْنَارْ فَرِنْيوس**»* يعمل لمشروع في الجغرافيا العامة ويضع وصفاً منظماً لبلدان العالم. وكنموذج لهذا العمل جمع فَرِنْيوس كل ما له صلة باليابان إلا أن هذا الانجاز لم يحفز غيره من الباحثين فباتت التجربة يتيمة.

إن فنّ الرحلة الذي ظل شائعاً إلى أواخر القرن الثامن عشر لا يفي بالمتطلبات العلمية للجغرافيا. فالرحلة تفيض في الحديث عن العادات والتقاليد مع شيء من المبالغة أو التشويه، ناهيك عن عدم اهتمامها بالأرض ونباتها ووحيشها، إلا ما تذر[3]. وربما يعود هذا القصور إلى سببين اثنين : أولهما اختلاف الأجناس وألسنتهم وطبائعهم، وثانيهما افتقار اللغة إلى

* **Dominique Comte de Cassini 1748-1845**

2

العالم عند أرسطو «قسمان كبيران متفاوتان مقدار وكالا : ما فوق فلك القمر، وما تحته. ومن رأيه أيضا أن العالم متناهٍ لأنه جسم، والجسم يحده سطح بالضرورة. كذلك يعتقد «أرسطو» أن العالم كروي الشكل، لأن الدائرة أكمل الأشكال ولأنها أيضا الشكل الوحيد الذي يمكن معه للمجموع أن يتحرك حركة أزلية أبدية، ومن غير خلاء خارجه. كذلك فإن الحركة الدائرية هي وحدها التي يمكن أن تكون واحدة متصلة لا متناهية، إذ أن الحركة اللامتناهية لا تتم على خط مستقيم، ولا على

* **Marco Polo 1254-1324**

خط منحن مفتوح لأن لكل منهما طرفين يحدان الحركة».

«ومن رأي 'أرسطو» أيضا أن دوام الأجرام السماوية، ودوام حركتها دليل على أن مادتها تختلف عن مادة الأجسام الأرضية المتغيرة تغيرا متصلا. ويرى أن مادتها هي الأثير» [...].

ويرى «أرسطو» كذلك أن الكواكب كلها ثابتة لا تتحرك حتى على نفسها، إنما

* **Bernard Varenius**

الذي يدور هو الفلك الحامل للكوكب. ولما كانت حركة الأفلاك سريعة جدا فإنها تسخن بالحرارة وتصير مضيئة. على أن الفلك المحيط أو السماء الأولى هو المتحرك الأول عن المحرك الأول، وهو «غلاف العالم» مواز لخط الاستواء، باق دائما على مسافة واحدة من الأرض. وهو دائم الدوران إذ يدور من المشرق إلى المغرب فوق الأرض، ومن المغرب إلى المشرق تحتها في كل يوم وليلة دورة واحدة [...]

المصطلحات العلمية القادرة على وصف المظاهر وصفاً دقيقاً. فإذا كانت الرحلة، على علاتها، هي المدخل الطبيعي للجغرافيا، فإن تطور العلوم الطبيعية عامة، وقيام الصِّنافة[4] خاصة بعد سنة 1760، هما اللذان ينبئان بمولدها الحقيقي.

1 ـ اللبنات الأولى

1.1 ـ محيط علمي منشط

تميزت العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر بمكتسبات علمية حاسمة كان لها أطيب الأثر في تطوير الجغرافيا. فها هو ذا **كَرْل فُن لِنّي***، عالم الطبيعيات السويدي، يقدم تصنيفاً للنباتات اعتماداً على عدد أسديتها وموضعها؛ ثم يثنيه بدراسة شبيهة للمملكة الحيوانية. هذا في الوقت الذي أخذت فيه الجيولوجيا تخطو أولى خطواتها إذ أمكن التمييز بين الصخور الرسوبية والصخور النارية. وما المساجلات بين الجيولوجيين آنذاك إلا دليل على الاهتمام الكبير والمتزايد بدارسة القشرة الأرضية.

لكن على عكس الظواهر الطبيعية التي أصبحت تعالج بأسلوب علمي صرف، فإن الجوانب البشرية ـ اللهم ما كان من دراسة الآثار التي كانت تستعير اصطلاحات الهندسة المعمارية ـ ما تزال تفتقد اللغة الدقيقة والطريقة السليمة. ولن تتحسن هذه الأوضاع إلا في أواخر القرن التاسع عشر مع انطلاق البحث في ميدان التراث والتنقيب في التقاليد والفنون الشعبية. غير أنه لابد من الاشارة إلى دور الفِزيُقراطيّين[5] الذين تحمسوا للاكتشافات العلمية التي أخذت تتحقق، فساهموا مساهمة فعالة في تطوير واستعمال المصطلحات التقنية الخاصة بالنشاط الفلاحي كالتناوب الزراعي وظاهرة السياج وتنظيم الدَّبر... ففي هذا السياق بالذات ظهر الاهتمام بحركات الانتجاع الجبلي منذ أوائل القرن التاسع عشر، خاصة في فرنسا[6].

وهكذا عند نهاية القرن الثامن عشر، وخلال خمسين عاماً، يتحقق الشرط الأول لمولد الجغرافيا العصرية، إذ توفرت أدوات تدقيق

ويعتقد «أرسطو» أيضاً أن الفلك المحيط هو علة دوران الشمس حول الأرض. وبناء على ذلك فهو علة تعاقب الليل والنهار، وعلة الظواهر الحيوية المتصلة بهذا التعاقب على وجه الأرض، وهو علة حركتها السنوية على فلك البروج، وعلة ما ينشأ عن هذا التعاقب من كون وفساد بحسب اقتراب الشمس من الأرض وابتعادها، فإن ميل فلك البروج سبب الاختلاف في تولد الحرارة والضوء على فصول السنة في مختلف مناطق الأرض [...] شريف (شريف محمد)، **تطور الفكر الجغرافي**، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، 1969، جـ 1، ص 178 ـ 180.

*** Carl Von Linné 1707-1778**

3

كما هو الشأن مثلا بالنسبة للرحلة التي قام بها البحار الفرنسي المشهور لُوي أنْطوان دِبُجَنْفيل (Louis-Antoine de Bougainville). فهو في معرض حديثه عن إحدى جزر أرخبيل سليمان (Iles Salomon) نجده عاجزاً عن إبراز معالم الجزيرة من جبال ومناخ وساكنة... إذ تخونه اللغة للتعبير عن تنوع مناخها وعجيب نباتها، وغرائب ناسها. ر : Bougainville (Louis-Antoine de), **Voyage autour du monde par la frégate La Boudeuse et par la flûte L'Etoile,** suivi du **supplément de Diderot,** Paris, 1771-1774, Réédition récente : Paris, 10-18-1966

4

الصنافة علم تصنيف الكائنات الحية (Systématique, taxonomie)

5

هم اتباع المذهب الفزيوقراطي «وهو

المعرفة الجغرافية : جزء منها يتعلق بوضع الخرائط، وجزء آخر يهم المصطلحات وبعض المفاهيم العلمية التي تعددت في شتى مناحي المعرفة كالاقتصاد حيث تألقت أسماء لامعة **كآدم سمث*** [7] و **طومَس مالْثُس*** [8] و **ليونَرْد سِسْمُنْدي*** [9]؛ وعلم النبات بفضل المساهمة القيمة **لألِكْسَندرفُنْ هَمْبُلت*** [10]، **وأجِسْتان برام دي كَندول*** [11]؛ وعلم الزراعة حيث برز **أرْثُر يَنْج*** [12]. ومن المعلوم أن هذه الطفرة العلمية التي تلاقحت فيها الأفكار مهدت السبيل لبناء نظريات كبرى من شأنها أن توجه البحث العلمي في كل الميادين كنظرية التطور **لـشارل دارون*** مثلا.

غير أن هذه الأدوات المتنوعة التي أبدعتها علوم مختلفة غير خليقة بخلق الجغرافيا كفكر متميز، مادام مفهوم التوزيع المكاني للظواهر الطبيعية والبشرية غائباً. فبينما لا تشكل تلك الأدوات سوى تربة خصبة، يمثل هذا المفهوم، مفهوم التوزيع، الأصيل البذرة الحقيقية التي تنبت شجرة الجغرافيا. والآن وقد توفرت التربة، فأين البذرة ؟ وبعبارة أخرى هل هناك في هذه الحقبة التاريخية ما يبرر قيام الجغرافيا ويساعد على ازدهارها ؟

2.1 ـ الحدث السياسي هل يفرز البذرة ؟

إن أوروبا التي أخذت، منذ نهاية القرن السابع عشر، تسير سيراً حثيثاً نحو التقدم العلمي والتفوق الصناعي كان ولا بد أن تعيد النظر، وفي المقام الأول، في هياكلها السياسية لتشرع في حركات إصلاحية من شأنها، بصفة مباشرة أو غير مباشرة، أن تزيد في أهمية التراب الوطني. فهل يساعد هذا المناخ العام على خلق الجغرافيا ؟

مما لا شك فيه أن أوساط«المستنيرين» ومحافل المثقفين آنذاك كانت لها اهتمامات كبرى بميادين السياسة والاقتصاد والمجتمع؛ وهي اهتمامات قمينة، بطرحها للمشاكل، وسعيها الدؤوب لتصور الحلول، أن تهتدي، بشكل أو آخر، إلى التصور الجغرافي الذي يربط الحدث بالمكان ربط تفاعل وليس مجرد تقابل عرَضي أو علاقة سببية. لكن هيهات هيهات لما نزال نطلبه حتى يومنا هذا ! فكيف يتأتى هذا والشروط الأساسية لم تتوفر كلها بعد ! ألم يكن جديراً بهؤلاء، في المقام الأول، ضبط المعرفة

فريق من الاقتصاديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر. وكانوا أول [في أوروبا] من بحث في الظواهر الاجتماعية واعتنقوا بعض الآراء حول القوانين الطبيعية التي تحكم الظواهر الاقتصادية وطبيعة النقود، وضرورة حرية التجارة. ولكنهم توصلوا إلى بعض النتائج الخاطئة عن طبيعة الثروة وتوزيعها، إذ اعتقدوا أن الأرض هي المصدر الوحيد للثروة لأنها هي وحدها التي تنتج فائضاً

*** Charles Darwin 1809-1882**

صافيا. وهذا الفائض هو وحده الذي يخضع للضرائب، أما الصناع فهم فئة غير منتجة إذ أنها لا تنتج الثروة، ولكنها تحور في شكلها». بدوي أحمد زكي) **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 315.

6

Broc (Numa), **Les montanges vues par les géographes et les naturalistes français au XVIII^e siècle,** Paris, Bibliothéque nationale, 1969.

7

*** Adam Smith 1723-1790**

اقتصادي، اسكتلندي الأصل، مؤلف كتاب «أبحاث حول الطبيعة وأسباب ثراء الأمم» (1776)

8

*** Thomas Malthus 1766-1834**

اقتصادي انجليزي، صاحب الرسالة المشهورة حول التناسل والساكنة (1798).

9

*** Leonard Sismonde de Sismondi 1773-1834**

مؤرخ واقتصادي سويسري. وهو يعتبر من أكبر منظري الاشتراكية. من أشهر مؤلفاته : «المبادىء الجديدة للاقتصاد السياسي» (1819).

وتدوينها ؟ هذا ما حدث بالفعل، إذا أخذت المراجع تتعدد، وهي مراجع متخصصة يغلب عليها طابع تقني. صحيح أن بعض هذه المؤلفات ينطوي على إشارات جغرافية[13]، لكنها إشارات أقرب إلى التلميح منها إلى التحليل أو حتى مجرد الوصف المنظم.

إن الظروف التي كانت تعيشها أوروبا في هذه الحقبة الحُبلى بالأحداث الخطيرة من جهة، ورغبتها الأكيدة في تقوية بِنائها السياسي من جهة أخرى، جعلت الدول العصرية تهتم أكثر فأكثر بتقدير مواردها وتعزيز مكتسباتها. كما أنه لابد من معرفة عدد السكان وأهمية اليد العاملة حتى تُعد القوة الدفاعية (أو الهجومية) ويتوفر القوت للجميع. وهكذا برز اهتمام بالغ بالجوانب الاقتصادية، جعل الباحثين يهتمون بالانتاج الزراعي والموارد المعدنية وطرق المواصلات والموانىء. وتولد عن تزاوج الاعتبار السياسي والضرورة الاقتصادية صنف خاص من الدراسات، يعتمد على الوصف ويستعمل الأرقام لمعرفة طاقات الدولة وتحديد مواطن القوة والضعف فيها[14]. وهو ما عرف بالـ«إحصاء» بفرنسا[15].

إذا أصبح استعمال هذه «الإحصاءات» أمراً شائعاً في جل دول أوروبا، فإن استعماله في الأنظمة السياسية المستبدة عامة، والامارات الألمانية خاصة، صار أداة لا يمكن الاستغناء عنها لتزويد بيت المال من جهة، وتجهيز العساكر من جهة أخرى. ثم ها هو **بوئابَرت** يطلب، بمجرد تعيينه قنصلاً ممتازاً، من كل ولاة المقاطعات الفرنسية إيفاده بكشف شامل لمقاطعاتهم بغية إعادة تنظيم البلاد. وهكذا يتأصل في فرنسا تقليد محمود، توفرت بفضله حوليات غنية وإحصائيات مفصلة كانت النواة لما سيسمى فيما بعد بالجغرافيا الإقتصادية. غير أن هذه «الإحصائيات»، بسبب استعمالاتها الادارية، وغايتها النفعية والعملية، لم تحظ باهتمام الباحثين الأكاديميين المنهمكين في قضايا «الفكر والسياسة».

وبجانب هذه الاهتمامات الاقتصادية التي فرضها الوضع السياسي العام بأوروبا، هناك حاجة أكيدة لإحكام التقسيم الاداري للتراب كما هو الحال بالذات في فرنسا حيث يرجع التقسيم الموروث إلى الإصلاح الذي قام الامبراطور الروماني **ديوكليسيان*** في القرن الثالث الميلادي ! فهذا

10

* **Alexandre Von Humboldt 1769-1859**

رحالة وباحث ساهم في تطوير علم المناخ والجيولوجيا والجغرافيا الحيوية وجغرافيا المحيطات. وهو كما سنرى أحد المؤسسين لعلم الجغرافيا.

11

* **Angustin Pyrame de Condole 1778-1841.**

عالم نباتي ولد بجنيف.

12

* **Arthur Young 1741-1820**

عالم زراعي أنجليزي، صاحب «رحلة إلى فرنسا» المشهورة (1792).

13

Broc (Numa), **La géographie de la Renaissance (1420-1620)**, Paris, Bibliothéque nationale, 1980; Id, **La géographie des philosophes. Géographes et voyageurs français au XVIII^e siècle**, Paris, Orphys, 1974; Id, **Peut-on parler d'une géographie humaine au XVIII^e siècle**, Annales de Géographie, Vol. 78, 1969 p. 57-76.

14

من المعلوم أن شعوباً قديمة قد عرفت مثل هذا كمصر بإمرة نبي الله يوسف عليه السلام.

15

Dockès (Pierre), **L'espace dans La pensée économique du XVI^e au XVII^e siècle**, Paris, Flammarion, 1969; Lazarsfeld (Paul), **Notes sur l'histoire de la quantification en sciences sociales, La période**

* **Dioclétien**

التقسيم، علاوة على ما فيه من جَور الأمراء، وعَسْف النبلاء، واضطهاد الكنيسة، الأمر الذي ألهب أقلام فلاسفة الأنوار نقداً، تقسيم يعاكس قيام دولة عصرية، مركزية، قوية، قادرة على الصمود والثبات في محيط سياسي هائج مائج. ولإضفاء طابع الحياد على سياسة الإصلاح، رسمت الخريطة الادارية الجديدة اعتماداً على «الخريطة الطبيعية» للبلاد بمراعاة التضاريس والمناخ والأنهار. أما في ألمانيا، حيث نجد تشابها في القضايا، فإن حركة الإصلاح على اتصال مستمر بالأوساط الأكاديمية، الأمر الذي يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا التقارب هو الذي ربما مهد الطريق للجغرافيا، وإن ظلت هذه الأخيرة محتجبة.

فإذا كان الحدث السياسي، في تفاعله مع الوضع الاقتصادي المشحون بحركية اجتماعية كامنة، قد استطاع في بعض الحالات، كما هو الشأن في ألمانيا، أن يفرز البذرة، فهو لم يقدر على ذلك في حالات أخرى كما في انجلترا مثلا، رغم الاهتمام الكبير بشؤون الفلاحة، بدافع من الحروب الطاحنة مع **نابليون**، ورغم قيام باحثين مرموقين في هذا الميدان بدراسات شاملة لعدة أقاليم، وتقديم اقتراحات عملية بشأنها كما فعل أرثرْ يَنْج و **وِلْيَم مَرشَل***.

إن هذا العرض الوجيز للحالات الثلاث يوحي بتخمين أساسي يجعل قيام الجغرافيا ليس رهينا بتوفر الشروط التقنية (ضبط المكان) وتفاعل السياسة والاقتصاد والمجتمع (حركات الإصلاح) فحسب، بل لابد كذلك من حركة فكرية، أو قل فلسفة تطرح قضايا الإنسان في بُعدها المكاني. فهل يحقق عصر الأنوار هذا الرجاء ؟

1 . 3 ـ زمان الأنوار، غياب المكان

إذا كان المحيط العلمي من جهة، وضرورة إصلاح المجتمع من جهة ثانية لم يكفيان لبناء الجغرافيا العصرية فالسبب في ذلك راجع، بالأساس، إلى تساؤلات الفلاسفة. وهي تساؤلات سبق طرح أغلبها في بداية القرن الثامن عشر، باستثناء ألمانيا. إن العقلانية[16] التي هي إحدى السمات الأساسية لـ«عصر الأنوار»، إن لم نقل سمتها الكبرى، واجهت في بدايتها

préparatoire, in Paul Lazarsfeld, **Philosophie des sciences sociales,** Paris, Gallimard, 1970.

* William Marshall

16

«العقلانية هي القول بأهمية العقل، وتطلق على عدة معان». ويهمنا منها هنا «الايمان بالعقل، وبقدرته على إدراك الحقيقة. وسبب ذلك في نظر العقلانيين أو قوانين العقل مطابقة لقوانين الأشياء الخارجية، وأن كل موجود معقول، وكل معقول موجود» [...] ولهذا فإن «العقل قادر على الإحاطة بكل شيء، دون عون خارجي يأتيه من القلب أو العزيزة أو الدين.» صليبا (جميل)، **المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية**، بيروت، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، 1973، المجلد الثاني، ص 90.

مشكلة استعصت عليها كثيراً. وهي مسألة تفاوت الحضارات : فلماذا استطاعت أمم أن ترقى إلى أعلى درجات المدنية، بينما ظلت أخرى تعيش عيشة الهمج ؟[17] فالجواب العقلاني جاء مطابقاً لنموذج المجتمع والإنسان كما صورهما «**الكوجيتو**»[18]، الذي يقدم الإنسان على المجتمع نظراً لاستقلاليته التي منحه إياها العقلي. وعليه، وباعتبار أن لبني الإنسان كلهم نفس المؤهلات بحكم تساويهم في الرشاد وسلامة العقل، فلا يبقى إذاً إلا البحث عن المعوقات التي حالت دون تطور تلك الشعوب وحولت مسيرتها الطبيعية، أي البحث عن سبب تعطيل العقل. ويعني هذا أن الكوجيتو يضع الإنسان على خط زمني مستقيم، لا حدث فيه؛ داخل سطح متجانس، لا عمق له.

فلا يبقى إذاً إلا مخرج واحد يرد الاختلاف الحاصل إلى الطبيعة التي تتفاعل ظروفها المتنوعة مع مقتضيات العقل فتأتي حتماً بنتائج مختلفة. فهذه «العقلانية اللا تاريخية» تدعو إذاً إلى نوع من التفكير الجغرافي؛ وهو ما سبق إليه **جان بودان*** في أواخر القرن السادس عشر، ثم عرض له **مُنتِسْكِيو*** في كتابه المعروف «روح القوانين»*، وإن كان على وعي تام بما يثيره هذا التأويل الحتمي من مشاكل لأن البلاد كما يقول هو نفسه :

«لا تزرع على قدر خصبها، بل على مقدار حريتها»[19].

إن مسألة التفاوت الحضاري التي شغلت بال الفلاسفة في بداية القرن الثامن عشر، والتي كانت قد اقتربت من الرؤية الجغرافية، حتى لو لم تقدم لها تفسيراً شافياً، لم تُعتبر عند منتصف القرن لغزاً مستغلقاً، إذ عُثر على المفتاح في فكرة التطور كما عبر عنها منظرها **تُرجو***[20]، الذي لا يرى في هذا الاختلاف ما يدعو إلى التضجر أو الاستنكار ماذامت القضية في رأيه ترجع بكل بساطة إلى درجة التقدم والتطور الذي حققه كل مجتمع[21]. فهو إذن يخالف مونتسكيو الذي يرى، انطلاقا من حرصه الشديد على فكرة الحرية، أن لكل مجتمع منطقاً خاصاً وواقعاً معيناً ينجم عنهما حتماً وضع خاص. وهكذا نجد **كُندُرسي***[22] ومعاصريه يستغنون تماماً عن الجغرافيا في فهم تنوع الدنيا، غير أنهم يعيدون الاعتبار، عند تحليل

17

إن مسألة التفاوت الحضاري قضية شغلت كثيراً من المفكرين من قبل مثل **مُنطِنْي** Montaigne) 1592 — 1533)و **پسكال** (1662 — Pascal 1623).

18

«كوجيتو لفظ لاتيني معناه «أفكر» يشار به إلى قول «**ديكارت**»، أنا أفكر، وإذن أنا موجود (**Cogito ergo sum**). ومعنى هذا القول إثبات وجود النفس من حيث موجود مفكر، والاستدلال على وجودها بفعلها الذي هو المفكر. وليس ديكارت أول من استدل على وجود النفس بالفكر، فقد سبقه إلى ذلك القديس «أوغسطين» و «ابن سيناء». صليبا (د. جميل)، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 249.

* **Jean Bodin**
* **Moutesquieu 1689-1755**
* **L'esprit des lois 1748**

19

Broc (Numa) **La géographie des philosophes,** op cit.

20

* **Anne Robert Turgot 1727-1781**

العالم الاقتصادي الفرنسي ومراقب المالية الذي اشتهر بإصلاحاته في فرنسا على عهد الملك «لويس XVI».

21

Turgot (Anne-Robert), **Tableau philosophique des progrès successifs de l'esprit humain,** Oeuvres de Turgot, t I, Paris. Alcan, 1913.

الأحداث البشرية، لمفهوم نمط العيش، هذا المفهوم الذي ينتظره مستقبل زاهر[23].

وعليه فإن دواعي بناء معرفة جغرافية والحث عليها تخفت وتحتجب مع تطور فلسفة الأنوار والأخذ بفكرة التقدم التي كان يجدر بأنصارها معرفة الأسباب الحقيقية في تعثر الشعوب دون إغفال لدور البيئة. لكن هذه القضية لم تعتبر قضية ملحة، بدليل، كما كان يُعتقد، أن هذه الشعوب لا مندوحة لها على كل حال، من اجتياز نفس المراحل، فالاهتمام بالتطلعات والمستقبل أهم وأوكد.

وهكذا نفهم المفارقة العجيبة في نشأة الجغرافيا خارج فرنسا وانجلترا حيث كان يتوقع أن تنشأ بالنظر إلى المناخ العلمي الداعي لها، وبحكم الضرورة الاجتماعية. هذا في الوقت الذي ما يزال فيه الاهتمام بالمجاهل متواصلاً دون فتور، بعيداً كل البعد عن أي محاولة لتحليل المكان تحليلا منظماً.

4.1 ـ لقاح الفلسفة الألمانية

تختلف الأوضاع في ألمانيا اختلافاً كبيراً بالمقارنة مع فرنسا وأنجلترا. فالأمة الألمانية لم تتغلب بعد على المحن التي كابدتها خلال القرن السابع عشر، ولم تمح مخلفات حرب الثلاثين سنة وما ترتب عنها من تقهقر سياسي ودمار اقتصادي وخلل اجتماعي. وهكذا أصبح الأمراء والأرسطقراطية مشدودين إلى فرنسا التي بهرت «أنوارها» أوروبا قاطبة، فها هو ذات الفيلسوف لَيبنتز* يختار الفرنسية كلغة يكتب بها، بينما يفرض «**فريديريك الثاني**»* نفس اللغة فرضاً على أكاديمية العلوم الفتية ببرلين، وهو القرار الذي قوبل باستنكار ومعارضة أغلبية المثقفين الذين أخذوا يهاجمون النخبة «المفرنسة» ويتحاملون بقوة على فلسفة الأنوار التي كانت تروجها تلك النخبة.

22

*** Condorcet 1743-1793**

إحدى الشخصيات البارزة التي خاضت أحداث الثورة الفرنسية. وهو عالم في الرياضيات والفلسفة والاقتصاد.

23

Claval (Paul), **Les mythes fondateurs des sciences sociales,** Paris, P.U.F, 1980, p. 48.

*** Leibniz 1646-1716**

*** Frederic Guillaume II 1744-1797**

1.4.1 ـ الأب الروحي للجغرافيا العصرية : كَنْط أم هِرْدَر ؟

جرت العادة، تأسياً بـ**هرتشورن**، الجغرافي الأمريكي المعاصر الذائع الصيت، على اعتبار **كَنْط**، الفيلسوف المعروف (1724 ـ 1804)، المؤسس الحقيقي للجغرافيا العصرية[24]، نظراً لاهتمامه الكبير بالموضوع واعتنائه البالغ بدروس «الجغرافيا الطبيعية» التي كان يلقيها، ذلك أن كَنْط كان يؤكد على ضرورة الرفع من قدر علمي الزمان والمكان باعتبار هذين البعدين مقدمتين من المقدمات الأساسية في عملية إدراك الأشياء وفهمها؛ لأن الأشياء متجاورة في المكان، متسلسلة في الزمان. فإذا كنا نسعى عادة لتصنيف الظواهر لمعرفة درجة انتظامها وكشف قوانينها، فهذا يقتضي استجلاء منطق توزيع هذه الأشياء، مكانا وزماناً؛ سواء كان التوزيع منتظماً أم لا. ولعل من شأن هذا أن يوجه التاريخ والجغرافيا معاً توجيها جديداً يخالف ما هو معمول به في تصنيف العلوم.

24
Hartshorne (Richard), **The nature of geography,** Lancaster (Pa), Association of American Georaphers, 1939.

فهل تساعد اهتمامات كنط بتباين القشرة الأرضية وتأكيده على التوزيع المكاني للظواهر على انطلاق البحث الجغرافي ؟ هذا ما ذهب إليه هرتشورن كما أسلفنا، غير أنه يبدو من الصعب الأخذ بهذا الرأي دون تحفظ لأن أَلِكسَندر فُن هَمْبُلْت و **كارل ريتَر***، المؤسسين الفعليين للجغرافيا، لم يتأثرا فقط بكنط دون غيره من الفلاسفة. ولعل **يوهَن چتْفريد هِردر*** أبرز هؤلاء. صحيح أن هِردر تتلمذ على كنط، لكن لم تكن له نفس المشاغل. فهو وإن أخذ بفكرة التقدم التي ينادي بها فلاسفة الأنوار، كان ينظر إلى القضية من زاوية أخرى، بحيث يرى أن معاينة اختلاف سطح الأرض ليست مجرد ملاحظة تثبت واقعاً معيناً، بل أيضاً وسيلة فعالة تكشف عن أسلوب تحديد الأمم لمصيرها لأن عبقرية كل شعب، على حد قول هِردر تكمن أساساً في قدرته على تسخير البيئة التي يعيش فيها بانيا بذلك حضارة أصيلة. أما مسألة التقدم، وإن كانت أمراً وارداً، فلا يجوز طرحها كما فعل فلاسفة الأنوار لأن البشرية في اعتقاد هردر لا تسير حتما نحو مصير واحد؛ فحركة التاريخ ليست حركة أفراد منسلخين عن محيطهم الاجتماعي والثقافي، بل حركة تنشطها أقوام وشعوب

* **Karl Ritter 1779-1858**

* **Johann Gottefried Herder 1744-1803**

لكل منها عبقريته القائمة على إرث معين ولغة موحدة ومصير مشترك تنسجم كلها في وعاء بيئي معين.

إن العلوم الاجتماعية بألمانيا عموما، والجغرافيا مدينة لهذا الفيلسوف بالشيء الكثير. فهو الذي جعلها، من خلال مؤلفين أساسيين[25]، عوض أن تركز فقط على الفرد وحوافزه وقدراته، تشدِّد على السلالات واللغة وما يترتب عنها. وبهذا يكون هردر قد أعدّ للجغرافيا برنامجاً طموحاً للغاية، القصد منه في النهاية فهم تاريخ البشرية.

25

Herder (J.G), **Une autre philosophie de l'histoire,** traduction, notes et introduction de Max Rouché, Paris, Aubier Montaigne, 1962; Id Herder (J.G). **Idées pour la philosophie de l'histoire,** traduction, notes et introduction de Max Rouché, Paris, Aubier Montaigne, 1962.

2.4.1 ـ هَمْبُلْت و رِيتَرْ : البحث عن مفاتيح الحضارة

إن شخصية هِرْدَر وأهمية أعماله لا يجب أن تحجب عنا المؤسسين الحقيقيين للجغرافيا كعلم : همبلت و ريتر اللذين لا يجوز اعتبارهما مجرد تلميذين لفيلسوفنا. فلولا أصالة في التفكير وابتكار في طرق الموضوع ما تأسست الجغرافيا العصرية وأرسيت قواعدها.

فـهمبلت هو ذلكم العالم الفذّ، الواسع الثقافة الذي ساهم، بفضل تكوينه العلمي، في تطوير العلوم الطبيعية والفزيائية خلال منعطف القرنين السابع عشر والثامن عشر. فلقد كان على اتصال وثيق بالفزيائي والفلكي الفرنسي المعروف **فْرَنْسْوَ أَرَجو*** وأخيه **جاك**، الكاتب والرحالة، صاحب «رحلة حول العالم» التي لقيت إقبالًا كبيراً. كما كانت لهمبلت أيضا علاقة بزمرة من الكيميائيين المرموقين. ولما كان طالباً بجامعة **إرْلِنْجِن*** بإقليم «بافاريا» الغربية، تلقى دروساً في مادة «الاقتصاد السياسي» وهي تقابل مادة «الاحصاء» كما في فرنسا وانجلترا. لذا تراه في رحلاته يذكر ذلك ويعمل به. ثم زد على هذا وذاك شغفه الكبير بالتاريخ واعتناءه الخاص بالفلسفة. فهل ننسى أن له أخاً، **فِلْهَلم فن همبلت***يُعدُّ من أقطاب الفلسفة واللغة معاً ؟ وحتى تكتمل صورة هذا الجغرافي الرائد، الموسوعي، الذي بدأ حياته العملية كمفتش للمعادن، فلا بد من الإشارة إلى ميولاته السياسية الإصلاحية، إن لم نقل الثورية.

* François Arago 1786-1853

* Erlangen

* Wilhelm Von Humboldt

وهكذا فإن همبلت، ينتمي قلباً وقالباً إلى «فلاسفة الطبيعة»*، أولئك الذين يستنطقون الكون لفهم البشرية. فهو حينما يعرض لنا صورة

* Naturphilosopher

دقيقة ومفصلة لأمريكا الاستوائية[26] فهو يرمي من وراء ذلك استشفاف مصير شعوبها واستقصاء تاريخ حضارتها المتعاقبة. أما عندما يعرض للكون فهو يحدد فيه فلكاً حرارياً، وهو عبارة عن شريط يبلغ اتساعه 35 درجة تقريباً، يخترق النصف الشمالي للكرة الأرضية على هيئة متموجة بحيث ينتقل محوره شمال وجنوب خط عرض 40 د حسب تغير المناخ بفعل المحيطات. ويرى همبلت في هذا الفلك الحراري الفيصل بين الأمم المتقدمة ناحية الغرب والشعوب الأخرى ناحية الشرق. وهو يقصد من هذا رسم إطار عام للتاريخ يسمح بلمس التفاعلات بين الشعوب وبيئتهم وبالتالي تصور مستقبلهم وفق رؤية «هرديرية» حاول توضيحها أكثر في كتابه الشهير «الكون»*، الذي أنجزه في آخر حياته. وهذا المؤلف الذي صدر منه أربعة أجزاء ما بين 1845 و 1858، والذي لم يستطع صاحبه إتمامه، يمكن اعتباره موسوعة جغرافية لا تكتفي بسرد الأحداث وعرضها، بل تسوقها في علاقتها المتنوعة، مع اعتبار خصائص توزيعها، وبهذا يكون همبلت قد أرسى مبدأ من المبادىء الأساسية لعلم الجغرافيا.

إن همبلت الذي كان يقرر بأن المعرفة التجريبية تنبني على المشاهدة للظاهرة التي تكشفها الحواس، بحيث تكون «الجغرافيا علماً تجريبياً أكثر من كونها مستمدة من المناقشات العقلية الفلسفية، أو معتمدة على النظريات المسبقة...»[27] كان أيضاً مهتماً بالعلاقات المكانية ويشعر بضرورة تفسيرها بردها إلى محتواها الاقليمي. ويتجلى المنهج الجغرافي عند همبلت من خلال ما جاء في مقدمة كتابه «الكون» حيث يقول : «إن الهدف الأهم لجميع العلوم الطبيعية هو معرفة الوحدة في محتواها المتباين. أو الوحدة في التباين... إن هدف الفصل المدخلي من الكتاب الاشارة إلى الأسلوب الذي من خلاله تنكشف جميع الظواهر والطاقات كوحدة واحدة لها شخصيتها المميزة، والتي تنبض في داخلها بالحياة...»[28]

وكانت آراء همبلت في الجغرافيا البشرية متأثرة بأحد اتجاهات فلسفة الجمال المأخوذ بعضها عن **جوته*** وعن علماء آخرين مختلفين ممن عاصروه كما ذكرنا، حتى لو أن همبلت اهتم أساساً بالموضوعات الطبيعية

26

Minguet (Charles), **Alexandre de Humboldt, historien et géographe de l'Amérique espagnole,** Paris, Maspero, 1968.

* **Cosmos**

27

Hartshorne (R) **Perspective on the Nature of Geography,** John Murray London, 1960.

عن محمد علي عمر الفرا **اتجاهات الفكر الجغرافي الحديث والمعاصر،** الكويت، نشرة دورية محكّمة تعنى بالبحوث الجغرافية يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية، العدد 49، يناير 1983، ربيع الأول 1403 هـ، ص 49.

28

Dickinson, R.E, **The Makers of Moderne Geograpy,** Routledge and Kegan Paul, London, 1969

عن المرجع السابق ص 12.

* **Goethe**

بسبب دراساته الميدانية، خاصة في أمريكا المدارية التي بلغ فيها مجاهل يختفي منها الانسان، أي «قلب الطبيعة الجبارة». لكنه مع ذلك يصف في كتاباته الانسان وثقافته وأعماله كجزء من وصفه وشرحه العام للطبيعة.

أما كَارْل ريتَر فهو لم يكن على نفس الدرجة من المعرفة المتعددة والاطلاع الواسع. فهو صاحب ثقافة «كلاسكية» مشبعة بأفكار بعض علماء التربية السويسريين من تلاميذ رسو*، وعلى رأسهم بستالوزي*، وتعاليم فلاسفة الطبيعة. كما لا يستبعد، كما يعتقد البعض، أن يكون قد تأثر أيضاً بالفيلسوف الألماني شيلِنج*، الذي ربما أخذ عنه فكرة الشمولية والوحدة والتوافق*. ومع ذلك فإن اتجاهه العام اتجاه هردِري كما يدل على ذلك جليا كتابه «الجغرافيا العامة المقارنة»، الذي أراده مدخلاً عاماً لدراسة الأوطان والشعوب، وهو طموح تبديه بكل وضوح إحدى فقرات الكتاب المذكور التي جاء فيها ما يلي :

«قد يأتي زمان يستطيع فيه عدد من الدارسين، ممن تحذوهم نفس الرغبة، وتحركهم نفس القوة، أن يدركوا الكون والانسان معاً، وأن يجمعوا شتات التاريخ من أجل نظرة بعيدة، ماضياً ومستقبلاً، فيستطيعون من خلالها التنبؤ بالمراحل التي لا مناص لشعب معين، في موطن معين، أن يقطعها؛ وهي مراحل يجب عليه وعيها وفهمها إن كان يصبو إلى الرفاهية، تلك الرفاهية التي يمنحها القدر بعدل تام لكل شعب تمسك بهويته[29].

«ويعتبر ريتر الجغرافيا بأنها علم الأرض الذي يصف الكرة الأرضية، من حيث أنها مهد الإنسان، وهي كائن صنعت حتى في أدق تفاصيلها لغرض مقدس كي تلائم حاجيات الإنسان، تمامًا شأنها شأن الجسد الذي خلق ليلائم الروح، ولذلك فإن الأرض صنعت للإنسان، وهذه قمة الفلسفة الغائية»[30]. أما منهجه فكان منهجاً مقارنا يرمي إلى ربط التاريخ بالطبيعة. والجغرافيا المقارنة كما يعرفها هو نفسه هي : «ذلك الفرع من العلوم الذي يتناول الأرض بجميع مظاهرها وظواهرها وروابطها كوحدة مستقلة، وهي تبين ارتباط هذا الكل الموحد مع الانسان ومع خالقه»* [31] وتلك قمة العلم. وقد كانت طريقته، فيما يظهر، متأثرة بآراء بستالوزي.. التعليمية التي تتضمن ثلاث مراحل : الأولى هي الحصول على المعلومات،

* Rousseau

* Johann Heinrich Pestalozzi 1746-1827

* Shelling 1775-1854

* Enklang

29

نقلا عن : Claval (Paul), **Geographie humaine et économique contemporaine**, Paris, P.U.G, 1984, p. 26-27.

30

فرا (الـ) محمد علي عمر، **اتجاهات الفكر الجغرافي الحديث والمعاصر**، سابق، ص 13.

* Weltanschaung

31

عينه، ص 13

والثانية هي ربط المعلومات الخاصة بالمكان في كل الأزمنة، والثالثة وضع نظام عام كما هو موجود في الطبيعة؛ وهي المرحلة التي ثبت أن تحقيقها بعيد المنال تماماً، رغم ما حاول أن يقوم به ريتـر.

ومن المبادىء التي يشدد عليها ريتر أن تكون الجغرافيا علماً تجريبيا أكثر مما تكون علماً استدلاليا يعتمد على التصورات العقلية ويستند إلى النظريات المسبقة. فهو يرى أنه على الجغرافي « أن يباشر و ينتقل من ملاحظة إلى أخرى، وليس من رأي أو فرضية ثم إلى ملاحظة. ولهذا طالب بالكف عن كل المعالجات الجغرافية النظرية»[32] وهو مع ذلك لا ينفي وجود قوانين تحكم علاقات الظاهرات البشرية بغيرها من الظاهرات على سطح الأرض، وهي قوانين يمكن الكشف عنها بالتدريج من خلال تجميع الحقائق وإدراك ما بينها من روابط. لذلك فهو يقول : «علينا أن نسأل الأرض نفسها عن قوانينها»[33]

ولا شك أن هذه القناعة هي التي جعلت ريتَر أول من عارض ما كان يسمى بالجغرافيا النظرية التي كان يصوغها أصحابها داخل المكتبات وبين المراجع، عوض الخروج إلى الميدان، وملاحظة الظاهرات وهي تنبض بالحياة وتعج بالنشاط[34]. وهذا لا يعني في رأي ريتَر أن الجغرافيا هي تجميع للبيانات وتصنيف للحقائق. وفي هذا يقول : «ليس هدفي مجرد تجميع أكبر قدر من الحقائق وتصنيفها كي أتفوق بها على من سبقني، ولكنني أبغي تتبع القوانين التي تخفي أسرار تباين الطبيعة، ولأبين ارتباطها مع كل حقيقة تُعالج بشكل منفرد، ولأوضح على مسرح تاريخي صرف الوحدة الصحيحة، والانسجام القائم في التباين الواضح، والتقلب الذي يسود الكرة الأرضية، والذي يظهر مميزاً في العلاقات المتبادلة بين الطبيعة والانسان»[35].

إذا كان هَمبْلت في دراسته المندرجة تحت موضوع الجغرافيا العامة يركز على الجوانب الطبيعية، ويكاد يحصر نفسه فيها، فإن ريتَر يميل إلى التحليل الإقليمي الذي كان يبرره بقوله : «كما أن التسلسل الزمني هو الإطار الذي ترتب فيه الحقائق التاريخية الوفيرة، فإن الجغرافيا لها كذلك إطارها الذي يمثله الإقليم. فكلا المادتين تتعلقان بأنواع مختلفة من

32

عينه، ص 12

33

عينه، ص 12.

34

«يبدو أن المؤسس الذي حاول أن يوضح الطريق وأن يأمر تلاميذه بالتقدم من مشاهدة إلى مشاهدة لم يكن هو شخصياً كثير المشاهدة، وكان يستخدم عينيه. وعلى أي حال فإنه عاش في وقت كان العلم قد بدأ فيه يجد لنفسه عيونا خاصة به» كريمَر، ف. ل F.L. Kramer عن فريمان ت.و **الجغرافيا في مائة عام**، مشروع النشر المشترك، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) بغداد ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص 33 [ترجمة عبد العزيز طريح شريف].

إن ريتر مثلا وإن لم ير فلسطين قط كتب عنها الكثير جداً، ويذكر «جويو» أنه علق على ذلك بقوله : «ما هي المعلومات الجديدة التي كان يمكنني أن أحصل عليها من زيارة فلسطين ؟ إنني أعرف كل ركن من أركانها». سابق، ص 33ــ34.

35

فرا (الـ) محمد علي عمر. **اتجاهات الفكر الجغرافي الحديث والمعاصر**، سابق، ص 23.

الظاهرات التي يكمل بعضها البعض، ولكن في إطاره الخاص»[36]. غير أن رِيتَر يوظف البحث الإقليمي لطرح القضايا البشرية التي تمثل محور الرحى بالنسبة له.

وربما يكون هذا الفصل بين الجغرافيا العامة أو المقارنة والجغرافيا الاقليمية أو الخاصة هو أصل الازدواجية التي تكرست فيما بعد، فأعطت الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا البشرية. وهي الازدواجية التي ما نزال نعاني منها حتى يومنا هذا. وهذه الازدواجية الأولى حاول الجغرافيون التصدي لها والتغلب عليها عن طريق اختيار أحد الاتجاهين.

فرِيتَر الذي لم يولِ إلا قليلا من الاهتمام إلى الجغرافيا العامة، كان يميل كما نعلم إلى الجغرافيا الاقليمية لقناعته «بأن الدراسات العامة التي قام بها من سبقه من الجغرافيين والتي تقوم على الفصل الذاتي للظاهرات الطبيعية المترابطة، وتقسيمها إلى رتب منفصلة ودراستها عالميا وعلى نحو مستقل ومنفصل بمثابة تدمير وتشويه للترابط الواقعي للطبيعة وقد لاحظ بأنه عند دراسة كل نوع من أنواع هذه الظارهات من حيث الشكل والاجراء... يصبح الأمر من اختصاص علوم أخرى أو جزءاً منها وليس ذلك من الجغرافيا في شيء»[37].

ومجمل القول أن تصور الجغرافيا عند رِيتَر يقوم على فكرتين : الأولى تتحدد في الهدف الذي يجعل من البحث تفسيراً للاختلافات المكانية، الطبيعية والبشرية معاً، لسطح الأرض. وهذا يعني أن الدراسة لا تتناول الظاهرات مجزأة ومنعزلة عن بعضها، بل ينظر إليها في ارتباطها مع التوزيعات المكانية الأخرى لترسم التركيب الحاصل فتشرحه ثم تفسره. أما الفكرة الثانية فتهم الانسان باعتباره الموضوع الأسمى للجغرافيا الغائية التي كان يؤومن بها.

أما اهتمامات هَمْبُلت بالجغرافيا العامة فهي، على ما يظهر، ترجع إلى «إيمانه بوحدة الطبيعة»، وهي الوحدة التي تتجلى من خلال التركيب العضوي لجميع ظاهرات سطح الأرض. «والجغرافي لا يدرس الظاهرة منفردة ومستقلة عن غيرها كما تفعل العلوم الأخرى، وإنما يتناولها ككل يتفاعل مع غيره من الظاهرات ويبحثها كأثر ومؤثر، أي سبب ومسبب.

36
فريمان (ت.و) **الجغرافيا في مائة عام**. سابق، ص 31.

37
فرا (الـ) محمد علي عمر. **اتجاهات الفكر الجغرافي الحديث والمعاصر**، سابق، ص 14.

وبذلك يكون هَمبُلت قد أدخل السببيـة في الجغرافيا والتي أنجبت الحتمية فيما بعد»[38].

38
نفسه، ص 15.

لابد من الإشارة، ونحن نقارن فكري الرجليـن، إلى أن رِيتَر لم يكن يعارض فكرة وحدة الطبيعة، بل على العكس كان يؤيدها، ويؤمن بترابـط الـظواهر كـما نعلم، لكن ضمن نطاق مكاني معلوم ومقدمات فلسفيـة مخالفـة. فبينما يرى رِيتَر «أن الحياة ما هي إلا تعبير عن غرض إلـهي، كان هَمبُلت يعتقد أن البشرية كلها بغض النظـر عن الدين والقومية واللون عبارة عن جنس واحد كبير تجمعـه روابـط وثيقة، وأنها عبارة عن شـيء كلي واحـد موجود لتحقيـق غرض واحد هو التطور الحرّ للقوى الذاتيـة[39]»، فالأول إذن يمارس جغرافيا غائية بينما ينـزع الثاني إلى جغرافيا وضعية.

39
فريـمان ت.و. **الجغرافيا في مائة عام**، سابق، ص 31.

ثم إن رِيتَر كان يرى في ربط الظواهر الأصل في خلق مناطق العالم وإبراز شخصيتها وبلورة فرديتها. وهي النظرة التي كانت سببا في إثارة مشكلـة ستعاني منها الجغرافيا أيَّما عناء : ألا وهي مسألة التفرد. وعليـه فـ «إن منهج هَمبُلت تحليلي بنائي، أي يركز على تحليـل الروابـط بين مختلف الظاهرات، في حيـن اختط رِيتَر لنفسـه منهجاً بنائياً تحليلياً يتمثل في البدء بوصف مكونات الاقليم وعناصره وينتهـي بتحليل روابط ظاهراته»[40].

40
فرا (الـ) محمد علي عمر، **اتجاهات الفكر الجغرافي والمعاصر**، سابق ص 15.

إن الموازنـة بين هَمبُلت ورِيتَر، وإن كانت لا تجـوز، فهي كثيراً ما عقدت، ومن أحسـن ما يذكر بهـذا الصدد ما جاء في تعليـق **لكَـرَيْمَر** الذي قال : «لقد أعطـانا همبلت مشاهدات وقياسات جديدة، وأعـطانا ريتر آراء منهجيـة»[41]. وعلـى الرغم من أن العمـل الذي قام به رِيتَـر إقليمي في صميمه، فـإنه يدين بحـظ وافر من أهميـته للأفكار الأصوليـة التي بنيت عليه؛ كما أن العمل الذي أنجزه هَمْبُلت، وإن كان أشـدَّ ميـلاً إلى الأصوليـة في تصميمـه، فهو يستمـد كثيراً من قـوتـه من النهـج الإقليـمـي.

41
فريمان ت.و. **الجغرافيا في مائة عام**،سابق، ص 33

إن النهـج «الاقليمي» الذي سارت عليه الجغرافيا في هذا القـرن ليس هو النهج الذي ستبتكره المدرسة الفرنسية هي مطلع القرن المقبل،

فهو أساساً محاولة للرد على سؤال فلسفي جوهري يتعلق بمصير الشعوب. لذا تجد هذه الجغرافيا نفسها في حاجة دائمة لعقد المقارنة بين الأوساط البيئية وتاريخ الأمم، وبالتالي مضطظرة باستمرار إلى تعديل المقاييس المكانية وتوظيف «جدلية» تربط الجزء بالكل، كما فعل ريتَر حتى يتسنى إبراز الخصائص المحلية والتشكيلات الكبرى على حد سواء.

إن الجغرافيا العصرية مدينة بالكثير لهذين العالمين اللذين أعطياها «منهجا علمياً واضحاً» ظل قائماً طيلة القرن التاسع عشر. لقد تعرض كل من هَمْبُلت وريتَر لكتابات من سبقهما، فانتقداها لأنها مجرد تجميع لمعلومات جغرافية غير منسقة ووصف غير منظم. فهما يعتبران المعرفة مشروطة بأمرين اثنين يتمان على مرحلتين : مرحلة التجميع الدقيق ثم مرحلة تنسيق المعلومات تنسيقا منطقياً يُيَسِّر فهمها ويصنفها على أساس من القوانين التي تبرز العلاقة السببية بين الظواهر بشكل مختصر ومستساغ. ولقد اعتبر كلاهما المرحلة الثانية من أهم خصائص البحث الجغرافي لأن الجغرافيا، كما يعتقد ذلك راتزل أحد الجغرافيين اللاحقين، إذا كانت تستحق أن تتبوأ الدرجة العلمية الرفيعة، فعليها أن تهتم بوضع القوانين، طبقاً لمنهج نيوتن السببي[42].

42

Wrigley (E.A), **Changes in the philosophie of geography,** in Chorley R.J, Hagget P. «**Frontiers in géographical teaching**», Methuen, London, 1070.

5.1 ـ من يحمل المشعل ؟

بفضل هَمْبُلت وريتَر أصبحت الجغرافيا الألمانية، في مستهل القرن التاسع عشر، نجماً ساطعاً متألقاً في عالم الفكر. لكن للأسف سرعان ما أفل هذا النجم بسبب ا لتحجر الذي أصاب أفكار الجغرافيين الرائدين إصابة في مقتل. فإلى غاية سنة 1859، وهي سنة وفاة الرجلين كليهما، ظلت المواضيع المطروقة هي هي، دون أدنى محاولة في التجديد. فكل ما حدث هو تعدد الدراسات مع الحرص الدائم على فهم حركة التاريخ. ولعل انحباس التفكير في فلسفة معينة كان السبب في الاجترار الذي سقطت فيها الجغرافيا والذي حجب عنها قضية المنهج الكفيل بتطوير المادة وتقعيدها ورفعها إلى العلم.

إضافة إلى هذا لم يكن للعالمين تلاميذ داخل بلدهما، وإن كان لهما

جمهور واسع من القراء تحمس لأفكارهم وتبنى آراءهم التي انتشرت أيما انتشار. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى الظروف التي لم تسمح وقتئذ بخلق كراسي علمية بجانب تلك التي كانت في برلين. أما الذين تتلمذوا عليهما أو الذين تأثروا بهما من الجغرافيين فكانوا من الأجانب. وهذا أمر في غاية الأهمية إذ نجد من بينهم أعلام مرموقين لعبوا دوراً حاسماً في نشر الجغرافيا خارج ألمانيا. ونخص بالذكر منهم الجغرافي الفرنسي الكبير **إلزي رُوكْلي***، الذي تتلمذ على ريتَرْ بعد التحاقه بجامعة **كُبْلَنْس*** سنة 1851، والسويسريين **أرْنُلد جُوِيّو*** و**لُوي أجَسّيز***، اللذين تابعا دراستهما العليا بجامعة برلين، الأول كطالب لاهوت والثاني كطالب جيوليوجيا. إلا أن جُوِيو أصبح يميل إلى العلوم الطبيعية بعد احتكاكه بصديقه أجَاسّيز. وبعد أن اشتغل لعدة سنوات كمدرس خصوصي في فرنسا أصبح جُوِيو مدرسا للتاريخ والجغرافيا في آكاديمية **نوشاتل*** من 1889 إلى 1848. ثم سافر بصحبة أجَسّيز إلى أمريكا حيث ألف كتابه «الانسان والأرض». وفي سنة 1854 التحق جُوِيو **بپرنسْتن*** كمدرس يشغل أول كرسي للجغرافيا هناك.

إن الفراغ المفاجيء الذي أحدثه موت هَمْبُلت وريتَر والذي زاد من هوله غياب مؤسسة جامعية ترعى الجغرافيا والجغرافيين، سرعان ما ملأه باحثون لا ينتسبون إلى المادة، بل كان أغلبهم من الجيولوجيين[43]. هذا في الوقت الذي أصبحت فيه المحافل العلمية تعزف عن الفلسفة الرومانتيسية*[44]. فلا غرابة إذن أن يتطور الفكر الجغرافي. وهذا التطور يتجلى بكل وضوح في أعمال كل من **أوسْكار پِشل*** و**فَرْدِيند رِخْتوفَن***.

فانطلاقاً من سنة 1866 دشن پِشَل حملة التطور هاته بسلسة من المقالات، في الوقت الذي أخذ يوجه فيه طلبة الجغرافيا نحو البحث في ميدان المورفولوجيا؛ وهو الميدان الذي اهتم به أكثر من غيره طيلة حياته القصيرة نسبياً، إذ توفي وهو دون الخمسين. غير أنه حاول أن يدرس أثر السطح على تاريخ الإنسان[45]. وظل پِشَل، لما يقرب من عشرين سنة، يتزعم الجغرافيا في ألمانيا؛ يعمل على تنمية الفكر الجغرافي وتطويره، يعارض أفكار هَمْبُلت «لأنه يعطي الانطباع بأن الجغرافيا العامة تعادل العلم الطبيعي كله»، وينتقد ريتَر «بسبب منهجه الغائي ولإخضاعه الجغرافيا للتاريخ».

* Elisée Reclus 1830-1905
* Coblence
* Arnold Guyot
* Louis Agassiz
* Neuchâtel
* Princeton

43

نجم (الـ) حسن طه، **دراسة في الفكر الجغرافي**، عالم الفكر، المجلد الثاني، العدد الثاني، يوليوز أغسطس سبتمبر، 1971، ص 126.

44

«الرومانتيسية من وجهة النظر الفلسفية اطلاق الموقف الفردي وإثارة الشعور في أغمض صور. والاعتقاد بلا نهائية الوجود ولا نهائية التقدم في التاريخ. بدوي (أحمد زكي). سابق، ص 361.

* Romantisime
* Oskar Peschel
* Ferdinand Richtofen 1833-1905

45

James. (P.E.), **All possible worlds : A History of Geographical Ideas,**
The Bobbs - Merril Company, New York, 1972, p. 216

عن محمد علي عمر الفرا، سابق، ص 16 ــ 17

وبِشَل هو آخر كبار الجغرافيين لعصر ما قبل الفلسفة الدارونية، ولو أنه أصلاً رجل قانون وصحفي. ويرجع إليه الفضل في محاولة إرساء القواعد الأساسية للجغرافيا الطبيعية العصرية وإن كان يسير على منهج المقارنة الذي خطه من قبل رِيتَر، مع الاعتناء بتفسير ملامح سطح الأرض وتصنيف ظاهراته[46].

46
Dickinson (R.E.), **The Makers of Modern Geography**, op. cit.
عن محمد علي عمر الفرا، سابق ص 17

«وربما كان بِشَل أول من اعترف صراحة بازدواجية الجغرافيا لأنه استبعد دراسة الإنسان منها على الرغم من أنه خصص طاقته العلمية وأفكاره التدريسية لكل من الطبيعة والإنسان. ففي الميدان الطبيعي كانت له مساهمات بارزة في دراسة الملامح الطبيعية لسطح الأرض. وفي المجال البشري قام بعمل الكثير من المنجزات الجادة عن أجناس البشر وثقافتهم. وقبل ذلك كانت له تحليلاته العلمانية التي تبحث في تاريخ الأفكار الجغرافية حتى منتصف القرن التاسع عشر»[47].

47
محمد علي عمر الفرا، سابق، ص 17

وبخصوص المنهج يرى بِشَل، بعد انتقاده لرِيتَر الذي يفلح في رأيه في تطبيق منهجه في الجغرافيا الطبيعية «بأن الجغرافيا المقارنة يجب أن يكون لها منهج محدد وغرض واضح مثل المورفولوجيا المقارنة، وعلى الجغرافي أن يبحث – مستعينا بالخرائط ذات المقياس الكبير – عن الملامح الطبيعية المتشابهة في أجزاء الأرض المختلفة ويقارن خصائصها ويحلل أصلها ويحاول فهمها من الزاوية التطورية على نحو ما هو متبع في علم التشريح المقارن. وقد انتقد أيضاً معالجة رِيتَر الغائية وادعى بأنها خارج ميدان الجغرافيا المقارنة، واستبدلها بالدراسة المقارنة لأشكال الأرض»[48].

48
نفسه، ص 18

وبهذا يكون بِشَل قد أسس الجغرافيا الطبيعية بألمانيا وجعل منها تخصصا قائم الذات. فإذا كان همبُلت ورِيتَر قد بحث كلاهما في الأرض، فالأول لم يقدم تضيفاً لأشكالها، بينما اقتصرت تصنيفات الثاني على السطح فقط، في حين حاول بِشَل أن يعرض لهذه الأشكال عرضاً أشمل يُعني بتوزيعها وتصنيفها وتفسير أصلها. وقد يوعز فشل بِشَل في تطبيق منهج التشابه في رأي دِيكَنسن لعدم توفره على المعلومات عن عوامل التعرية[49].

49
Dickinson (R.E), op, cit, p 58

ولقد كان لبِشَل تلاميذه الذين حملوا أفكاره بعد وفاته. ولا شك

أن أبرزهم هو **ريخْتوفَن** الذي تتلمذ عليه جيل من الجغرافيين المجددين الذي ذاع صيتهم في العالم أمثال **بِنْك** في ألمانيا و **دَيْفِس** في الولايات المتحدة الأمريكية، البلدين اللذين ظلت فيهما الجيومرفولوجيا الميدان الرئيسي للجغرافيا. وهذا ما جعل رقعة الجغرافيا تتسع شيئا فشيئا لتحتوي مواضيع جديدة ظلت تطرقها حتى الآن علوم أخرى. وهكذا أخذت الجغرافيا تشمل عدداً كبيراً من علوم الطبيعة التي لها علاقة بالأرض.

أما الجغرافيا البشرية فهي لم تغب مع طلوع شمس الجغرافيا الطبيعية. فهي تدرس الأجناس البشرية واستعمال الأراضي الزراعية والأنشطة التجارية وحركات السكان. وهذه المواضيع التي غالبا ما كانت تدرس من خلال علاقتها بأشكال سطح الأرض كما هو عند ريخْتوفَن في أعمال مشهورة حول الصين وكاليفورنيا هي التي شكلت وقتئذ مضمون الدراسات الجغرافية الاقليمية.

ويحتمل أن يكون هذا الاتجاه الجديد قد زاد في التباس الجغرافيا وكرس ازدواجيتها التي أصبحت مركبة : جغرافيا عامة مقابل جغرافيا إقليمية؛ وجغرافيا طبيعية مقابل جغرافية بشرية. وكان طبيعياً جداً أن يفضي هذا الانقسام إلى خلق تيارين متناظرين لم يفلح الفكر الجغرافي حتى الآن في التوفيق بينهما.

إن اللبنة الألمانية لبنة أساسية في تشييد صرح الجغرافيا المعاصرة، لكن الفلسفة التي كانت تنهل من معينها سرعان ما صدت عنها الجيل الجديد من الجغرافيين الذين استهوتهم أهداف ومُثُل علمية أخرى. وهكذا فإن الازدهار الذي ستشهده الجغرافيا في العقود المقبلة بين 1870 و 1900، يرجع أساساً إلى تقويم المادة على أسس أقرب إلى البحث العلمي والتجربة، حتى وإن بقيت الطموحات الموسوعية والتأمل الفلسفي في مصير البشرية تلاحق عدداً من الجغرافيين في بداية هذا القرن؛ الأمر الذي بدونه لا يمكن فهم آثار بعض مشاهير الجغرافيين كـ**فرِدْرِش راتْزل*** **إلزي روكلي** أو **فِدال دُلَبْلاش*** نفسه.

* **Friedrich Ratzel 1844-1904**

* **Paul Vidal de La Blache 1845-1918**

2 ـ البناء الهشّ

1.2 ـ في خدمة القومية والاستعمار

تعد سنة 1871 سنة بارزة في تاريخ الجغرافيا. ففي هذه السنة انعقد بمدينة أَنْفير* أول مؤتمر جغرافي دولي كاد يقتصر على رجال الدبلوماسية وقواد الجيش وأمراء البحر، دون الجامعيين الذين لم يحضر منهم إلا نفر قليل. فالجغرافيا، حتى الساعة، لا تمثل في نظر النخبة المثقفة أكثر من طُرَف ومتعَة فكرية؛ وإن كانت في نفس الوقت تحظى بعناية الخرائطيين واهتمام الساسة والسياسيين المشغولين بالقضايا الاستراتيجية. لكن بعد ثلاثين سنة فقط تنقلب الأوضاع رأساً على عقب لتصبح الجغرافيا مادة تعلَّم في المدارس الابتدائية والثانونية، في الوقت الذي تتعدد فيه الكراسي الجامعية بألمانيا ثم فرنسا وباقي بلدان أوروبا، وبعدها انجلترا والولايات المتحدة حوالي 1900.

* Anvers

إن هذه التطورات السريعة التي سيكون لها. لا محاولة، آثار بليغة في الجغرافيا، لا يجب أن تحجب عنا الدور الحاسم الذي اضطلعت به الجمعيات الجغرافية منذ نشأتها المبكرة في العشرينات من القرن الثامن عشر بباريس (1821) وبرلين (1828)، ثم في العقد الموالي بلندن (1830) ومكسيكو (1833) وفرانكفورت (1836) بإيعاز من هَمْبُلت نفسه أو تأثراً بأفكاره وأنجازاته العلمية الرائعة. وبعد نصف قرن من الزمن أصبحت هذه الجمعيات مؤسسات أكاديمية ناضجة، وان احتجبت بعض الشيء في أبراجها العاجية. لكنها سرعان ما تعددت فتطورت لتخرج من عزلتها وتصبح أداةً تطبيقية شديدة الفعالية كما في فرنسا.

فمنذ تأسيس أول جمعية جغرافية بفرنسا، وخاصة بعد احتلال الجزائر سنة 1830، أخذ الكتاب يهتمون بشمال إفريقيا لا كسوق جديدة فحسب، بل أيضاً كمستوطنات مفتوحة في وجه المعمرين، خاصة منهم سكان إقليم ألزاص بعد خضوعه لحكم الألمان. وفي سنة 1876 تأسست في باريس جمعية الجغرافيا التجارية التي ظلت تعمل خلال السنوات الثلاث السابقة كلجنة من لجان الجمعية الجغرافية، هدفها النهوض بالتجارة

الفرنسية في العالم بتحسين المعرفة الخاصة بالجغرافيا التجارية وتشجيع الرحلات التي تمهد السبل أمام تجارة البلاد وصناعتها ودراسة الموارد الطبيعية والهجرات الاستعمارية والحركات التنصيرية، وقد بدأت تنشر مجلتها في سنة 1879.

وفي نفس الفترة تأسست، سنة 1873، في مدينة لِيون جمعية شبيهة وقوية، تتوخى نفس الأهداف؛ زيادة على دور تعليمي يعكف على تدريس الجغرافيا التجارية بالمدارس. وفي السنة الموالية قامت جماعة من التجار وأرباب السفن في مدينة بُوردو بتأسيس جمعية مشابهة سرعان ما أصبحت مركز استقطاب لعدد من الجمعيات بالجنوب الغربي من فرنسا، حتى أن عدد أعضائها بلغ 1300 سنة 1881.

وهكذا أصبحت الجمعيات الفرنسية، بما تحظى به من دعم رسمي، تتمتع بشهرة عالمية ومكانة مرموقة داخل المجتمع الفرنسي. ولا شك أن وزنها العلمي هو الذي رشحها لعضويه «اللجنة الدولية لكشف القارة الإفريقية» وهي اللجنة التي نظمها الملك ليوبولد الثاني، ملك بلجيكا، سنة 1876. وهي السنة التي ظهرت فيها جمعية مَرْسِيليا ودراسة المستعمرات. وبعد تأسيسها أصدرت مجلتها ربع السنوية وأرسلت بعثة علمية لاستكشاف منابع نهر النيجر. «وكانت مجلة الرفيو الجغرافية « Revue de Geographie »، تدعو صراحة إلى الاستعمار، حتى أن احتلال فرنسا لتونس سنة 1881 كان في الحقيقة بتحريض منها»[50].

50
الجغرافيا في مائة عام، و. فريمان، سابق، ص 53.

لم تقتصر الجمعيات بفرنسا على الحواضر الكبرى والموانىء التجارية، بل تعددت في كل أرجاء البلاد وحتى في المستعمرات. ففي سنة 1878 تأسست ثلاث جمعيات في مَنْبُولْيي و رُشْفُور و وهران بالجزائر. فبينما كانت جمعية منبوليي تهتم أساساً بالجغرافيا المحلية، كانت جمعية روشفور، التي ضمت نخبة من رجال البحر وموظفي المستعمرات، توجه عنايتها إلى الهند الصينية. وبعد سنة فقط تكونت جمعيتان أخريان بنَانْسي ورُوان. وبحكم موقع مدينة نَانْسي على مقربة من الحدود الجديدة جمعت «جمعية الشرق الجغرافية في نَانْسي» بين دراسة المستعرات والاهتمام بالقضايا المحلية. بعد ذلك تشكل، سنة 1880، «الاتحاد الجغرافي الشمالي» الذي

اتخذ من مدينة دُوي مـركزاً له وهو الاتحاد الذي ضم ثلاث عشرة جمعية إقليمية.

وفي هذا الوقت الذي ازدهرت فيه الجمعيات الجغرافية أيّمَا ازدهار، برزت جمعيات مماثلة في كل أنحاء المعمور. ففي أمريكا الجنوبية أصدرت جمعية بِـرْنَمْبُـك بالبرازيـل أول منشوراتها سنة 1863، ثم ظهرت مجلتان أخريان في بُـوينُسْ أيْرِسْ سنتي 1879 و 1881. وفي مصر نشرت الجمعية الجغرافية أول أعمالها في القاهرة سنة 1875. وتلاحقت بعد ذلك الجمعيات خلال العقد الموالي حتى وصل عـددها في العالم سنة 1885 أربعاً وتسعيـن جمعيةً، ثمانون منها في أوروبا، وسبعاً وستيـن داخل فرنسا وحدها التي بلغ عدد المجلات الجغرافية فيها أربعاً وثلاثين والمنخرطين ألفاً وخمسمائة، مقابل ثماني وعشرين وتسعة ألف وثلاثمائة. فبينما نشأت في سويسرا ست جمعيات، فإن بريطانيا، مع مالها من مستعمرات لم يكن بها إلا خمس جمعيات فقـط بسبب هيمنة الجمعية الجغرافية الملكية.

وفي سنـة 1881 لم يخلُ بـلـد أوروبـي من الجمعيات، باستثناء تركيا والنرويج؛ حتى أن «كتاب فاچنر السنوي*» لسنـة 1869 «ذكر لمائة وسبع جمعيات و 38 فرعاً وكانت موزعة على 22 دولة وكان عدد المطبوعات المسلسلة التي نشرت قد بلغ 153، وكان عـدد ما نشرته الجمعيات منها 125 من بينها 48 في فرنسا و 42 في ألمانيا و15 في أنجلترا»[51].

* Wagner year's book

51 نفسه، ص 54

وهكـذا، خلال ثلث قرن من الزمن فقـط، عرفت الجغرافيا إشعاعاً واسعاً وصيتاً ذائعاً سرعان ما أكسبها صبغة مهنيـة، وكاد الكل يجمعون على الاعتراف بها كمادة هامة. وهذا ما يفصـح عنه الكشّاف البريطاني الشهير ستـانلي* في خطاب ألقاه يوم ثالث دجنبر من سنة 1883 بجامعة إدنبرة حيث قال إنـه من الضروري أن يكون هناك اهتمام شديد بالجغرافيا في «كل ميناء كبير وكل مدينة صناعية في هـذه المملكة [...] التي ترسل « منها السفـن والمنسوجات أو المؤن إلى كل مكان به سوق تجاري. ولئن كان صاحب السفينة أو صاحب الصناعة له رغبة في أن يعرف عمله جيداً فمـن الواجب عليه أن يكون على عِلم ببعـض الجغرافيا». وقد كان يقال في

* Sir Henry Morton Stanley 1840-1904

الواقع «إن المعرفة الجغرافية هي التي تمهد الطريق إلى النجاح التجاري وإلى بداية التمدين»[52].

52 نفسه، ص 60.

ونجد نفس الاحساس والاهتمام عند القادة والسياسيين. فلنستمع إلى **اللورد أبَرَدين**، الوزير الأول البريطاني ما بين 1852 – 1855 الذي كتب ما يلي : «إن هذه الفترة تعتبر بالنسبة للسياسيين في جميع الشعوب الأوروبية الكبرى فترة قلق واهتمام شديدين يرتبطان قليلا أو كثيراً بالمطالب الإقليمية الضخمة. أما بالنسبة للجغرافي، فعلى الرغم من أن اهتمامه ليس ملحاً إلى هذا الحد، فإنه لا يقل عن ذلك شدة. فبينما كان الفرنسيون في آسيا وأفريقية – والروس في آسيا الوسطى والربطانيون على حدود أفغانستان وعلى أكثر من جبهة من جبهات الهند وعلى كل جوانب القارة الافريقية وفي الاقيانوسية – والألمان على سواحل افريقية الشرقية والغربية بين جزر المحيط الهادي والبحار الاسترالية، والايطاليون في البحر الأحمر – بينما كان كل هؤلاء يقومون بتنفيذ البرامج المرتبطة بمصالحهم القومية فإنهم ساهموا كذلك بإضافات ضخمة إلى معلوماتنا عن الكرة الأرضية، فضلا عن أنهم أثارو البحث في غيرها»[53].

53 نفسه، ص59 ــ 60

في الوقت الذي كانت أوروبا تُحكِم فيه قبضتها على المستعمرات، تعرضت بلدانها، خاصة في نهاية القرن التاسع عشر، إلى احتدام النعرات القومية التي أجَّجت الشعور بالذات، وفرضت ضرورة إثباتها. وهكذا بات كل الساسة مقتنعين بضرورة تحسين المواطن بالقضية. فإذا كان التاريخ يذكّر بالأمجاد ويحيي التقاليد، فإن للجغرافيا دوراً لا يقل خطورة لأنها تحدد الوطن، وتظهر تنوع أرضه وأهله – تقاليداً وعادات ولهجات – وتبرز قدرة تكامله من أجل بناء دولة قوية ومتماسكة في محيط دولي جديد تراجع فيه الاكتفاء الذاتي، وتفتح فيه الاقتصاد على العالم الخارجي.

وهكذا تُقدم فرنسا، مباشرة بعد هزيمة 1870، على تعميم وتطوير تدريس الجغرافيا بحيث كُلِّف **إميل لوفاسّور*** – وهو مؤرخ وديمغرافي – بإعداد تقرير عن نظام التعليم بالبلاد الذي اعتبر من الأسباب الرئيسية في الهزيمة بالنظر إلى التفوق البيِّن الذي أظهره جنود العدو. وجاء التقرير المذكور يؤكد على أمرين اثنين : ضعف اللغات الأجنبية على الرغم من

* Emile Levasseur

الحصص المخصصة لها؛ وعدم الاهتمام بمادة الجغرافيا التي تدرَّس كمجرد إطار للأحداث التاريخية.

وقبل أن يضع لوفاسور توصياته، بغية إدماج أجدى للجغرافيا في التدريس، رحل إلى الولايات المتحدة، وبالضبط إلى مدينة برِنْستن طالباً مشورة أرنلد چويو، تلميذ ريِتَر كما نعلم. ومن أبرز الأفكار التي شُرع في تطبيقها : تعميم تدريس الجغرافيا لتشمل كل الأقسام الابتدائية؛ إعادة النظر في البرامج – والتي ما تزال موجودة حتى اليوم في فرنسا وجل مستعمراتها القديمة، اللهم ما كان من تعديلات طفيفة لا تذكر – ووضع الأطالس والكتب للتلميذ والمعلم.

2.2 ـ الجغرافيا الأكاديمية

1.2.2 ـ ظلال الفلسفة الألمانية

إن توظيف الجغرافيا لإلقاء المزيد من الضوء على تاريخ الأرض والبشرية قصد فهم مصير الشعوب فكرة لم تمت بموت هَمْبُلت وريتَر. فهي ما تزال حية في كثير من كتابات إلزي روكْلي الذي قد يرجع إليه الفضل، أكثر ممن عاصروه، في التعريف بالجغرافيا على أوسع نطاق كما يدل على ذلك الاقبال الذي أحرزه كتابه «الأرض» وهو في ثلاثة أجزاء صدرت سنتي 1868 و 1869، ثم «الجغرافيا لعامة الجديدة»* ذلكم الإنجاز الضخم من تسعة عشر مجلداً نشرت بين 1876 و 1894. فتلك الفكرة عند روكْلي لم تزد مع تقدم سنه من جهة، وتراكم المعلومات من جهة أخرى، إلا نضجاً واختماراً فكانت ثمرتهما كتاب «الإنسان والأرض»*، الذي لم يطبع إلا بعد موته. وهذا العمل المقسم إلى ستة أجزاء يعرض فيه صاحبه رؤية اجتماعية وآراء سياسية هي اليوم محط عناية كبرى لدى الجغرافيين «اليساريين»[54]. غير أن ما يميز فكر هذا الجغرافي الكبير هو نظرته الشمولية للكون وسعيه الجاد لفهم تاريخ البشرية برمتها. فهو كما يقول پول كلافال : «فيلسوف طبيعي تائه في عصر الوضعية، متخلف عن زمانه علميا، لكنه لا شك متقدم عليه بطموحاته الانسانية وميله إلى العدل والمساواة»[55].

أما في ألمانيا فقد حاول فرِدْرِش راتْزل الانسلاخ عن الفلسفة

* Nouvelle Géographie Universelle

* L'Homme et la Terre

54

Giblin (Béatrice), **Elisée Reclus, géographie, anarchisme,** Hérodote, n°2, 1976. p 39. 40; Frémont (A,) et al, **Géographie sociale,** Paris, Masson, 1984, [p. 30, 31, 64, 66].

55

Claval (Paul). **Géographie humaine et économique Contemporaine,** op. cit, p. 31.

الطبيعية السائدة، إذ عكف ردَحاً من الدهر يسعى لإغناء الجغرافيا بلقاح الداروينية؛ وإن كان يجنح بعض الشيء إلى التأملات الشمولية لفلاسفة الطبيعة. فرَتْزل شأنه شأن باقي رواد الجغرافيا الألمانية، هاجسه الكبير الفهم الكلي للأرض والإنسان في حركة واحدة. وهذا بالفعل ما يعكسه مؤلفه الشهير «الجغرافيا البشرية»* الصادر سنة 1882. غير أن طموحاته الموسوعية جعلته ينشر بين 1885 و 1888 كتاب : « علوم الإنسان»* ويقع في ثلاثة أجزاء. ثم مع مر الزمن، وبتأثير الفيلسوف جُستاف ثيودور فِشْنَر، أحد مؤسسي علم النفس الفزيائي، يعود راتزل ليربط الصلة من جديد بالرؤية الكونية لهِرْدَر ويميل إلى آراء ريتَر.

وهذا يعني أن راتزل جاء يرد الاعتبار للجغرافيا البشرية التي تراجع شأنها لدرجة أصبح فيها بعض المغالين والمتعصبين للجغرافيا الطبيعية يُقصون الإنسان تماماً من البحث كما فعل الجغرافي المشهور **جورج چرلند***. وعليه، فهناك من يعتبر راتزل واضع الأسس العلمية للجغرافيا البشرية بالنظر إلى كتابه العام «الجغرافيا البشرية» (1882) الذي يمثل حدثاً بارزاً في تاريخ الجغرافيا وتطوير منهجها، حاول من خلاله مؤلفه التوفيق بين العلوم الطبيعية ودراسة الإنسان.

إن هذه التأثيرات. «الريترية» وتلك المواضيع «الهردرية» سنجدها حاضرة أيضاً عند أحد أقطاب الجغرافيا الفرنسية : فدال دُلبلاش*، الذي دفعته قراءته لراتزل إلى الانتقال من التاريخ إلى الجغرافيا التي أغناها بإنجاز هام : «الجغرافيا العامة»*، التي تعتبر مرآة صادقة للجغرافيا الفرنسية بين الحربين العالميتين. لكن في نهاية القرن سرعان ما تراجعت أفكار الفلسفة الطبيعية وغابت الرؤية الكلية للإنسان والأرض بسبب انتصار المذهب الوضعي[56]، الذي عدل عن التساؤلات الكبرى لينصرف إلى مواضيع محدودة وأقل شمولاً.

2.2.2 ـ على درب العلوم الطبيعية : الجغرافيا علم العلاقات بين الإنسان والبيئة

إن مذهب التطور[57] الذي ظهر خلال القرن الثامن عشر في كنف

56

«المذهب الوضعي مذهب «أوجست كُونْت» Auguste Comte 1798-1857، الذي يرى أن الفكر البشري لا يستطيع أن يكشف عن طبائع الأشياء، ولا عن أسبابها

* Anthropogéographie

* Volker unde

* Gustav Theodor Fechner 1801-1887

القصوى وغاياتها النهائية، وإن كان يستطيع أن يدرك ظواهرها، ويكشف عن علاقاتها وقوانينها، وقد مر هذا الفكر خلال تطوره بثلاث حالات هي : الحالة اللاهوتية، والحالة الميتافيزيقية، والحالة الوضعية. ».

* George Gerland 1833-1919

« وهذه الحالة الثالثة هي النهائية. قال كُونْت «لما أدرك الفكر البشري هذه الحالة الوضعية، وعرف أنه ليس في مقدوره الحصول على حقائق مطلقة، عدل عن البحث عن مبدأ العالم وغايته، وعن الكشف عن الأسباب الباطنية للأشياء، وانصرف، باستخدام الملاحظة والاستدلال

* Paul Vidal de La Blache 1845-1918

* La géographie Universelle

معاً، على وجه حسن، إلى الكشف عن قوانين الظواهر، أي عن علاقتها الثابتة التي لا تتغير». صليبا (الدكتور جميل)، **المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والأنكليزية واللاتينية**، مرجع سابق، المجلد الثاني، ص 578 ــ 579.

57

«مذهب قديم [...]، غير أنه لم يصبح مذهباً علميّاً إلا في العصور الأخيرة، يوم أخذ العلماء يعللون نشوء الأنواع الحية

العقلانية السائدة آنذاك لن يستطع غزو العلوم الطبيعية وتوجيهها إلا في القرن التالي مع **لامارك**[58]، الذي مهد الطريق للداروينية[59] التي جاءت تعرض نظرية النشوء والارتقاء بالنسبة للكائنات الحية في مؤلف صدر سنة 1859 تحت عنوان : «أصل الأنواع»؛ ثم بالنسبة للإنسان في مؤلف ثانٍ : «أصل الإنسان» سنة 1871. فإذا كان الإنسان، على حد قول هذه النظرية، ينحدر من سلالة حيوانية، فلا مناص إذن من إعادة النظر إليه وإلى واقعه الاجتماعي من منطلق جديد. وعليه فإن المشكلة الجديرة بالاهتمام لا تكمن في تأويل تاريخ الأنسانية وفهمه، بل في البحث عن الأسباب والعوامل التي رفعت الإنسان وخلصته بالتدريج من حيوانيته لتجعل منه كائناً اجتماعياً يخلق الثقافة ويصنع الحضارة. وهكذا يمكن حصر تأثير النظرية الدرونية، التي أغرت الجغرافيين كما أغرت غيرهم من العلماء في أربع نقاط رئيسية هي : «مفهوم التغير عبر الزمن؛ مفهوم التنظيم، مفهوم الصراع والانتقاء؛ مفهوم العشوائية أو خاصية فرصة التغيرات التي تحدث في الطبيعة»[60]. وإذا كانت نظرية التطور قد تركت بصماتها على الجغرافيا، فهي كانت أقوى أثراً في دراسة أشكال سطح الأرض كما يدل على ذلك فكرة الدورة التحاتية عند دَيفِس التي تولدت عنها سلسلة متلاحقة من النظريات الجيومرفولوجية[61].

إن هذه الأفكار الجديدة، وإن لم تحجب السؤال التقليدي الذي كان يطرحه فلاسفة الطبيعة الذين تساءلوا عن أثر البيئة في الإنسان، وبالتالي عن حركة التاريخ برمتها، حوَّرت المعادلة فوضعت الإنسان، كنوع من الأنواع الموجودة على ظهر البسيطة، محل المجتمعات، متجاوزة بذلك فكرة الانسجام الضروري بين الشعوب وبيئاتها لتحقيق نفس المصير؛ هذا المصير الذي جعلته الداروينية، المشبعة بالمالتسيه[62]، يتحدد على مستوى المادة الصرفة، كمشاكل القوت والسكن ومقاومة الوحوش، تماماً كما كان الإنسان القديم. ومن هنا نبتت فكرة أن الوسط البيئي يخلق المدنية.

ففي هذا السياق العام أخذ موضوع الجغرافيا يتطور، فعوض الأخذ بالمنظور الإقليمي، أي التأكيد على اختلافات السطح وما تمليه من تطورات للمجتمع، أصبح الجغرافيون يركزون على العلاقات التي تربط

بقانون تنازع البقاء، وقانون الانتخاب الطبيعي (دارون)، أو يرجعون تبدلها التدريجي البطيء إلى تأثير البيئة والوارثة (لامارك)، أو يجعلون التطور قانوناً كليّاً محيطاً بكل شيء : من السديم إلى الشمس والكواكب السيارة، ومن الأنواع الكيماوية إلى الأنواع الحية، ومن الوظائف العضوية إلى الملكات العقلية والمؤسسات الاجتماعية (هربرت سبنسر). صليبا (الدكتور جميل) **المعجم الفلسفي**، مرجع سابق، المجلد الأول، ص 295.

58

* La marck 1744-1829.

هو صاحب مذهب في التطور العضوي الذي يؤكد على أن التغيرات البيئية تحدث في الحيوان والنبات تغيرات بنيوية تصبح وراثية تنتقل إلى الذرية.

59

هي نظرية دارون Charles Darwin 1809-1882، الذي «تقرر تطور الكائنات الحية، بما فيها النوع الانساني من أصل واحد مشترك، وإن هناك كفاحاً من أجل البقاء بين أفراد النوع الواحد على أساس من الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح». بدى (د. أحمد زكي)، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 95

60

Davies (W.K.D) **Theory, Science and Geography**

عن محمد علي عمر الفرا، سابق ص 44.

61

ونذكر منها على سبيل المثال إلا الحصر نظريات وِلِيَم پنك (William Penck) وهنري بوليچ (Henri Baulig)

الإنسان بالبيئة مع السعي إلى استنباط القواعد العامة التي تحكم تطور الأجناس وتوجهه.

1.2.2.2. راتزل، البيئة ومسألة الحتمية

لا غرابة بتاتاً أن يكون راتزل أول من تحمس من الجغرافيين لهذه الرؤية الجديدة[63] بحكم تخصصه (علم الحيوان) وتتلمذه على **إرنست هاكل*** عالم الأحياء السويسري مؤسس «الايكولوجيا»، أي علم العلاقات بين الكائنات الحية المتعايشة في نفس المكان في حالة تكيف مع الأجواء المحيطة بها. ومع هذا وذلك فإن لراتزل اطلاع واسع ومبكر على أفكار دارون[64]. وهذه التأثيرات مجتمعة هي التي أهلته لكتابه «الجغرافيا البشرية» التي يتناول فيها ثلاث قضايا[65] :

أ – توزيع الإنسان على سطح الأرض وتصنيفه
ب – اعتماد التوزيع الجغرافي للجنس البشري على البيئة الطبيعية وكنتيجة للهجرات البشرية
ج – أثر البيئة الطبيعية على الأفراد والمجتمعات مثل تأثير المناخ على السلوك القومي.

إن هذه المبادىء التي وضعها راتزل لبحثه توحي، للوهلة الأولى، بانسياقه الكامل للمذهب التطوري وتوظيفه للحتمية البيئية المغالية كأداة وحيدة للتعبير عن تفاوت الأجناس وتنوع الحضارات. لكن القراءة المتأنية والدراسة الواعية لأعماله، كما يقول شراحه، تبعد عنه هذه التهمة التي تسبب فيها بعض المغالين من تلاميذه أمثال **إلن تشرشل سمپل***[66]. فمن الثابت أن راتزل قد تخلص مبكراً من ربقة الداروينية الضيقة كما كان ينهجها بعض الاحيائيين ليتفرغ لدراسة الحضارات مؤسسا بذلك، كما يرى البعض[67]، الإثنولوجيا[68]، ومضيفاً لبنات أساسية لصرح الجغرافيا البشرية.

إن هذه النظرة الجديدة للجغرافيا، كعلم يدرس العلاقات بين الإنسان وبيئته، بدت تحمل في طياتها مزايا عديدة : فهي تحدد للمادة حقلا واضحاً للعمل، يتميز التحليل فيه بالدقة بفضل مقاييس جغرافية أكثر ملاءمة لضبط التفاعلات؛ ثم تجنبها الغموض والالتباسات الغائية التي

62

«نظرية خاصة بالعلاقة بين السكان وموارد المعيشة، وتقول بأن زيادة السكان هي السبب الرئيسي في انتشار الفقر، وأن الموارد الغذائية تزيد وفقاً لمتوالية حسابية، على حين أن السكان يزيدون وفقاً لمتوالية هندسية، وترى أن العلاج الوحيد لذلك هو

* **Ernst Haeckel 1801-1887**

تحديد النسل عن طريق تأخير الزواج والعزوبة مع العفة. وذلك بجانب الحرب والمجاعات والأمراض المعدية وغيرها من العوامل التي تحد من الزيادة الطبيعية للسكان» بدوى (د. أحمد زكي)**معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 254.

63

وهي رؤية وجدت من قبل عند ريتَر في كتابه : «المدخل إلى الجغرافيا العامة» حيث يكتب : «إن الأعرابي، صاحب الخيال الجامح، مدين، بما له من حرية مطلقة وفلسفة عفوية وتصورات مبتكِرة تجعله يعطي مدلولًا للفضاءات الرحبة الخالية وللسماء الدائمة الشفافية التي يتأملها، مدين بهذا كله إلى طبيعة الأرض حيث يعمل الجسم الرشيق والعقل المتوقد على اختلاف كل شيء، وتملك كل شيء.» عن Claval (Paul), **Geographie humaine et économique Contemporaine**, op. cit, p 33.

* **Ellen Semple Thurchill 1863-1932**

64

« وقد كان اهتمام راتزل في أول الأمر بالطبيعة حيث حصل على درجة الدكتوارة في علم الحيوان والجيولوجيا والتشريح المقارن. وحتى يكمل أبحاثه في علم الحيوان بجنوب فرنسا حاول أن يفتش عن وسيلة لزيادة

تتصف بها الرؤية الهردرية؛ كما أنها تستدعي الجغرافيا أن تحذو حذو العلوم الأخرى في استنباط القواعد والقوانين العامة.

إلا أن هذه الرؤية لم تكن للأسف جديرة بتقديم تفسيرات مقنعة. فراتزل نفسه كان يشعر باختلافات ناجمة عن التقدم التقني والتطور الحضاري بمعزل تام عن البيئة وبعيداً كل البعد عن كل حتمية ضيقة. لذلك كان شديد الاهتمام بقضية انتشار الظواهر وحركات الهجرة المختلفة (التي أشار إليها دارون). وهو نفس الاهتمام الذي حفز عدداً كبيراً من الباحثين الذين أخذوا يرقبون مواطن الابتكارات ويرسمون مسالك انتشارها. وهذا ما جعل مؤرخي الإناسة[69] (الاثنولوجيا) ينسبون لراتزل نظرية الانتشار الثقافي*[70] ويعتبرونه أيضا المؤسس الحقيقي للمذهب الثقافي*[71]. غير أن راتزل يرى أن مفهوم الانتشار قد يلائم المجتمعات البدائية أكثر مما يلائم المدنيات المتطورة ودولها العصرية المنشغلة بإقامة مجال حيوي يضمن كيانها وبقاءها. لذا فهو يقول بوجوب رسم إطار تحليلي أنسب : إطار الجغرافيا السياسية الكفيلة بإبراز تنظيم الدول العصرية والتكهن بمستقبلها.

إن راتزل يرى أن هناك ثلاثة عناصر رئيسية تحكم الإنسان وتؤثر في تطوره وهي : المكان* ، بمعنى الموقع؛ الحيز*، أي المنطقة، وهي مجال جغرافي يتفسح باستمرار لأن الناس أو الدول ترغب دائماً في التوسع خارج موطنها الأصلي نحو «حدود طبيعية»؛ وهي ثالث العناصر.

وعلى هذه الأفكار وضع راتزل «جغرافيته السياسية» التي نشرت أول مرة سنة 1897. ومجملها أن الدولة تجمُّع مكاني متميز على سطح الأرض، له خصوصيات وتنظيم معين، أي أنها بعبارة أخرى مجموعة بشرية تحتل قطعة من الأرض، الأمر الذي يجعل من مفهوم المجال الحيوي* شرطاً من شروط بقائها. ولذلك كان راتزل يعتبر الدولة جسماً متحركاً يسعى لتحقيق حدوده الطبيعية التي قد يتجاوزها إذا لم يواجه قوة منافسة تمنعه من ذلك. وهذا التوسع الذي يهدف إلى غزو الأمكنة وفتحها، كما يفعل الرعاة الرحل والزراع المستقرين على السواء، يحدث بفعل الضغط السكاني الذي يجعل المجتمعات أو الدول تتسع إلى أن تواجهها عوائق

المعونة المالية. وقرر أخيراً أن يرسل تحقيقات صحفية عن مشاهداته للمناطق التي يزورها وعلى إثرها عُرضت عليه وظيفة مراسل علمي لاحدى الصحف. وقد نصحه بعض أصدقائه استغلال هذه الفرصة كي يصبح جغرافيا. وبالفعل حول راتزل ميدان اهتمامه من متخصص في علم الحيوان إلى جغرافي. وقد تم هذا التحول بعد ست سنوات من رحلاته التي قضاها في أوروبا والولايات المتحدة والمكسيك [...] وقد صدق «كارل ساور» حين قال بأن راتزل دخل الجغرافيا عبر العمل الصحفي». محمد علي عمر الفرا، سابق، ص 20، 21.

65

Dickinson، سابق عن محمد علي الفرا، سابق أيضاً، ص 20.

* **Diffusionnisme**

* **Culturalisme**

* **Lage**

* **Raum**

66

انظر دليل هذا الحكم عند فريمان ت.و، **الجغرافيا في مائة عام**، سابق، ص 81 وما بعدها.

* **Lebensraum**

67

Mercier (Paul), **Histoire de l'anthropologie,** Paris, P.U.F; Poirier (Jean). **Histoire de la pensée ethnologique,** in Jean Poirier (édit). **Ethnologie générale,** Paris, Gallimard, 1968.

طبيعية أو مقاومة بشرية[72]. وفي هذه الاعتبارات الجغرافية الأساسية تكمن في رأي راتزل العوامل التي تحدد سلوك الدول وتحكم تقدمها.

لكن هذا التصور العُضواني[73]، الذي يذكر بأفكار **هربرت سپنسر**، مؤسس فلسفة التطور، جعل راتزل ينصرف عن التدقيق في المفاهيم الأساسية كالدول أو الشعب الذين اعتبرهما وحدات جغرافية تامة ومتجانسة، خالية من الاختلافات والتفاوت.

وانطلاقاً من فكرة المجال الحيوي صاغ راتزل مفهوم «اللاندسكيب الثقافي»*، ويعني به الكيان الجغرافي المتميز الذي تؤسسه حضارة معينة. وهو وجود جغرافي يسجل المراحل التاريخية المتعاقبة للاستيطان البشري. غير أن هذه الفكرة، التي تمثل إحدى أسس فكر راتزل والتي تبطل ضمنيا كل إمكانية للتعامل والتعاون بين الدول، تعرضت لنقد لاذع، خاصة بعد أن استغلتها النازية الاستغلال المروع كما هو معلوم.

وفي هذا السياق تعرض راتزل للمدينة باعتبارها قوة باعثة للمنطقة السياسية وعنصراً فاعلاً فيها. فكان أول من حاول تعريفها تعريفاً أكاديمياً. وهذا التعريف الذي تضمن، كما أوضح ذلك **ميكلبست*** ثلاثة عناصر رئيسية وهي : نوعية النشاط وتركز السكن وعدد أدنى من السكان، لن تستغني عنه التعاريف اللاحقة[74]. والمدينة في تصور راتزل كائن حي في حاجة إلى التغذية والتنفس. لذلك فهو يتحدث عن «وظيفة المدينة» وهو اصطلاح استعارة من الفسيولوجيا فأصبح جارياً على ألسنة الجغرافيين والعمرانيين حتى أيامنا هاته. كما أن راتزل « طور فكرة «ظهير الميناء»* وصنفه إلى خمسة أنواع من التكامل المكاني على النحو التالي : الظهير الطبيعي، والظهير السياسي والتوزيع والظهير السوقي، وظهير المنتجات، وظهير المرور. »[75].

لكن هذا النداء كان صيحة في وادٍ لم يعره الجغرافيون أي اهتمام يذكر، إذ سرعان ما احتدم النقاش، انطلاقاً من سنوات 1890، حول موضوع البيئة الذي كان موضع آمال كبيرة تتطلع إلى تكريس الجغرافيا بعد أن اختارت أن تسير على نموذج الطبيعيات التي قدمت الدليل على

لكن راتزل الذي مارس فعلاً السُّلالة (الاثنولوجيا) — كما يبين ذلك كتابه «الجغرافيا البشرية» الذي نجد فيه مثلا وصفاً دقيقاً لوسائل الصيد المستعملة

* **Herbert Spencer 1903-1820**

بإفريقيا السوداء — لم يمارسها عن قصد ووعي بالموضوع؛ بل جاء الأمر عَرَضاً والدليل على ذلك احترازه الشديد وحيطته

* **Kulturlandshaft**

الكبيرة منها ومن علم الإحصاء على السواء. راجع :

Derruau (Max), **Précis de géographie humaine**, Paris. Armand Colin, 2° édit., 1963, p 3-4

68

الإثنولوجيا، أو علم الإنسان التحليلي،

* **Myklebost**

أو السُّلالة تهتم «بالدراسات المتعلقة بنشأة السلالات والأصول الأولى للنوع الإنساني. كما تهتم بأصول الثقافات والمناطق الثقافية وانتشارها والخصائص النوعية لكل منها. ولهذا كان يعبر عنها بالانثروبولوجيا الثقافية

* **Hinterland**

[...] وكانت إلى عهد قريب جداً تختلط بالانثروبولوجيا الاجتماعية [...]»

«وكانت الموضوعات التي يدرسها علماء هذا الفرع من البريطانيين هي التي يدرسها علماء الاثنولوجيا . والأمريكيون. وكانت الانثروبولوجيا والاثنولوجيا الاجتماعية يعتبران في نظر علماء القرن التاسع عشر علماً واحداً ودراسة واحدة، لأن كل منهما يبحث الثقافات والمجتمعات الإنسانية».

قدرتها، منهجاً وعطاءاً؛ خاصة وأن ليس للعوم الاجتماعية الأخرى ما تقدمه لها، إما لأنها ما تزال هي أيضاً تبحث عن نفسها، أو لانشغالها باهتمامات أخرى بعيدة كل البعد عن اهتمامات الجغرافيين كما هو الحال بالنسبة للتاريخ والاقتصاد، المادتين الوحيدتين اللتين أُرسيت قواعدهما.

إذا كان الجغرافيون يرون أن موضوع دارستهم يتلخص في تحليل العلاقات بين الإنسان والوسط الطبيعي، فإلى أي حدٍّ يصل هذا التأثير ؟ إن هذه المسألة شغلت الدارسين كثيراً وشكلت نقطة خلاف بينهم. وكيفما كان الأمر، فجلهم لا يوافق على المواقف الحتمية المتشددة لأن الأمثلة التي تبطلها لا حصر لها. لكن هل يعني هذا أن الإنسان استطاع التخلص تماماً من مؤثرات البيئة ؟ طبعاً لا. لذا أخذ عدد متزايد من الجغرافيين في أواخر القرن يغنون البحث بدراسات كثيرة حول نفس الموضوع مع الاحتراز من كل تعصب حتمي كما أسلفنا.

ومع مرّ الزمن وتراكم الأبحاث أصبحت التفسيرات والتأويلات تتعدل شيئاً فشيئاً مراعية خصائص البيئة التي يكدح الإنسان من أجل استغلالها ما استطاع إلى ذلك سبيلا. وهذا يعني أن المجتمعات توجد أمام عدة إمكانات من حيث الاستغلال. وهذا بالذات ما يؤكده التاريخ الذي يصف استغلالات متنوعة أو متعاقبة للبيئة الواحدة.

2.2.2.2. الجغرافيا الاحتمالية

كان الجغرافيون الفرنسيون، بحكم تكوينهم التاريخي، أكثر الناس نقداً للمذهب البيئي الحتمي الضيق. فهذا **فدال دُلبلاش**، قطب المدرسة الجغرافية الفرنسية ومؤسسها، يؤكد تأكيداً على نسبية الانجازات البشرية[76]، بينما يعتبر المؤرخ **لوسيّان لُفيفر**[77] المذهب الاحتمالي*[78] السمة الكبرى للجغرافيا الفرنسية. غير أن هناك من يرى في موضوع البيئة تضييقاً على البحث الجغرافي وجعله غير قادر على استخراج القواعد، الأمر الذي استنكره لُفيفر الذي يعين للجغرافيا طموحات أكثر تواضعاً. فهو يميل إلى الدراسات التحليلية، المفصلة، المركزة لنطاقات محددة يختارها البحث بكل عناية. و ينصح الجغرافي الفرنسي بالتواضع والابتعاد عن

«وكانت الجماعات البشرية والمجموعات السلالية تصنف على أساس ثقافتها، وكانت عناية العلماء عامة تتبع الأصول الأولى للثقافات والحضارات الإنسانية وتحليلها. وبعد أن اتجهت أنظار العلماء إلى العناية بالدراسة الوظيفية لنظم الجماعات وتوجيه مزيد من الاهتمام إلى البنية الاجتماعية وبيان العلاقات الوظيفية والتكاملية بين النظم الاجتماعية وإغفال الجانب النشوئي والتاريخي أو ا لتقليل من أهمية النسبية في البحوث الاجتماعية ظهر الاتجاه إلى فصل الدراسة الاثنولوجية عن الدراسة الانثروبولوجيا الاجتماعية، وبذلك استقل كل من فرعي الانثروبولوجيا بعضهما عن البعض الآخر بالرغم من عدم ظهور هذا الاستقلال بالنسبة للدراسات الانثروبولوجية في أمريكا إذ ظلت العناية بدراسة الثقافة وتحليلها أهم ما يشغل أذهان علماء الأنثروبولوجيا الأمريكان» بدوى (د. أحمد زكي)، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق ص 140 ــ 141.

69

Lowie (Robert), **Histoire de l'ethnologie, classique**, Paris, Payot, 1971

70

هي «النظرية الانثروبولوجية التي تبين أهمية الانتشار في نمو الثقافة البشرية وتؤكد قدرة الاختراعات الجديدة وأهمية الاستعارة المستمرة والمشتركة للسمات

*** Possibisme**

الثقافية في تاريخ الانسان. وأن التشابه الموجود في الثقافات المختلفة يرجع إلى استعارة هذه السمات لا إلى ظهور اختراعات مستقلة بذاتها في الثقافات الأخرى» بدوي (د.أحمد زكي) **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 109.

المواضيع الفضفاضة ليسخِّر كل قدراته لجمع المعلومات وضبطها والتأكد منها بدل الخوض في فروض قد لا تتحقق. وبعبارة أخرى فإن لُفيفر يطالب بتطبيق منهج العلوم الطبيعية على العلوم الاجتماعية، كما كانت تملي ذلك الفلسفة الوضعية. فهل يوافق الجميع على هذا الرأي ؟

3.2.2.2. الجغرافيا علم المشاهد

ظهرت في السنوات الأخيرة من القرن بألمانيا، مرة أخرى، محاولة جديدة لإعطاء الجغرافيا شخصيتها واستقلالها. فالقضية المطروحة وقتئذ، والتي يحتدم حولها النقاش[79]، تدور حول تعريف المادة تعريفاً يحدد هدفها ويجنبها التصادم أو التداخل مع العلوم الأخرى. وهذا ما لم تحققه لا الرؤية الإقليمية الشاملة، ولا المعالجة البيئية اللتان سلبتا من البحث الجغرافي، كما يقول المعارضون، القدرة على التعميم الذي به يرتفع شأن الجغرافيا.

كان **أوطو شلوتر*** أول من جعل من الجغرافيا علماً خاصاً بالمشاهد. وهو المفهوم الذي سرعان ما استهوى العديد من الجغرافيين. فكيف لا وهو الاتجاه الذي جاء يقترح للجغرافيا موضوعاً ملموساً وواضحاً لا ينازعها فيه أحد ؟ مع العلم أن العلوم آنذاك تعرَّف بموضوع بحثها أكثر مما تتحدد بمنهجها. فإذا كانت القوى الطبيعية والأعمال البشرية تتفاعل فيما بينها، فإنه يترتب على هذا التفاعل واقع مرئي، أي مشهد. والمشهد، في نظر شلوتَر، هو المنطلق الصحيح لكل دراسة جغرافية تريد الإجابة عن كل التساؤلات.

لكن هذا المفهوم يعتريه كثير من الغموض والإبهام نظراً لالتباس كلمة Landshaft الألمانية المزدوجة المعنى. فهي تفيد إما المظهر (المشهد) العام لجزء من سطح الأرض، وإما إقليما محدداً منه. والمعنى الأول تقابله في الانجليزية كلمة Landscape وفي الفرنسية Paysage، بينما يعبر عن الثاني في اللغتين بكلمة واحدة Region.

إذا كانت هذه المدرسة وأتباعها يهمهم أساساً الظواهر البارزة على السطح والتي تعطيه صورته الخاصة، فلا غرابة إذن أن تكون الدراسة

71

أسفله، الفصل 2، (ازدهار المدارس)، الفقرة 1.4.3.1.

72

هل نرى في هذا تأثيراً معيناً لأفكار مالتس ؟. فلوثبت هذا لكانت فكرة «المجال الحيوي»، التي تعد من أبرز الأفكار في الجغرافيا الحديثة، وانفعها عند البعض، امتداداً واضحاً للمالتسية.

73

أسفله، الفصل 2، (ازدهار المدارس)، هامش 31.

74

Myklebost (Hallstein), **Norges Tettbydge Steder,** Oslo, 1960

Beaujeu - Garnier (Jacqueline) et Chabot Georges). **Traité de géographie urbaine,** Paris, Armand Colin, 3° édition, 1963, p 29.

* **Otto Schlütter 1872-1959**

75

محمد علي عمر الفرا، سابق، ص 21.

76

La Blache (Paul Vidal), **Tableau de la géographie de la France,** Paris, Hachette, 1908

77

Febure (Lucien), **La terre et l'évolution humaine,** Paris, La Renaissance du livre, 1922

78

« الاحتمالية أو الإمكانية هي النظرية التي تناهض «الحتمية أو البيئية» وتؤمن بحرية الإنسان في الاختيار. فالبيئة لا تحتوي على ضرورات أو حتميات وإنما على

الجغرافية تحليلاً مرفولوجياً في المقام الأول، خاصة وأن التركيز كان ينصب، في بادىء الأمر، على المشهد الطبيعي قبل أن يُعنى بالتدريج بالتغيرات المترتبة على فعل الإنسان.

3.2 – جغرافيات القرن التاسع عشر

إن تعدد الاتجاهات واختلاف الرؤى عند الجغرافيين خلال القرن التاسع عشر لاشك أنهما يعبران على حيوية المادة وتطورها السريع. وهكذا يمكن التمييز فيها بين ثلاثة تصورات كبرى ستنبثق عنها في المستقبل مدارس جغرافية قائمة الذات، لكل منها فلسفتها الخاصة. ففي مرحلة التأسيس هذه نجد الجغرافيا تارة تؤكد على الاختلافات الإقليمية لسطح الأرض وتنظر إليها نظرة فلسفية غائية، يعنيها المصير؛ وتارة تراها منصرفة إلى دراسة العلاقات بين الإنسان والبيئة، انطلاقاً من الوضعية، واعتماداً على منهج العلوم الطبيعية؛ وتارة أخرى تركز على المشهد وتجعل منه موضوعاً لها. غير أن هذه التيارات عوض أن تتلاقح فيما بينها وتتلاحم لتخلق فكراً جغرافياً أصيلاً، اندفعت في اتجاهات شتى ما تزال، حتى الآن، تجعلنا نتساءل : وما هي الجغرافيا ؟!

1.3.2 ـ الجغرافيا الغائية

الجغرافيا الغائية، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، رؤية للإنسان والكون معاً تبرز التقسيمات الدالة للقشرة الأرضية، فتجلي طبيعتها وتبيِّن تركيبها، هادفة من وراء ذا وذاك لمس العلاقات بين الوحدات الطبيعية وما ينجم عنها من تراتب حضاري. فالوحدة الطبيعية، إذاً، أو الحيوية في بعض الحالات، هي المنطلق التأملي للجغرافيا الإقليمية التي كانت تريد أن تعرف كيف تهيِّىء هذه الظروف استيطان الإنسان واستغلاله للأرض. وبعبارة أخرى فإن هذه الجغرافيا الإقليمية تهتم بإبراز المظاهر الطبيعية الفعالة التي تفسر استيطان المكان واستغلاله لأن الطبيعة، كما يوحي بذلك التاريخ الذي اطلع عليه الجغرافيون، هي التي توجه الإنسان.

إمكانيات واحتمالات. والإنسان هو الحكم في اختيار ما يلائمه من هذه الإمكانيات. كما أنه قوة إيجابية فعالة في تهيئة البيئة لمطالبه وتعديلها أو تغييرها وفقاً لمشيئته ». بدوي (أحمد زكي) **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، مرجع سابق، ص 322.

79

أنظر : Claval (Paul), **La pensée géographique, introduction à son histoire,** Paris, Publication de la Sorbonne, Périe « N.S Recherches » - 2, S.E.D.E.S, 1972, p 43.

إن الجغرافيا، وفق هذا التصور الذي وضع زمن رِيتَر لا يناسب إلا الوحدات الجغرافية الكبرى التي تدخل في نوع من «الجدلية» فيما بينها. وهذا هو السبب في اعتمادها على الخريطة أكثر من اعتمادها على الميدان، واعتناءها الكبير بالسطح. فهذه المعالجة التي تتم على مقاييس تتراوح عادة بين 1/ 200.000 و 1/5 000.000، تفضي بالضرورة إلى التجريد الذي غالباً ما يكتنفه الغموض أو عدم الدقة : أقطار وأمصار، شعوب وقبائل، وكأنها بشرية ساكنة، محنَّطة لا تعيش ولا تعمل !

2.3.2 ـ الجغرافيا البيئية

إن الجغرافيا البيئية التي تهتم بدراسة العلاقات بين الإنسان ومحيطه الطبيعي تطبق في غالب الأحيان منهجاً تحليلياً يتم على مرحلتين أساسيتين : فهي تعنى أولا بوصف الوسائل والطرق المستعملة لاستغلال البيئة؛ ثم تحاول بعد ذلك استخراج العبرة واستنباط الفلسفة. ويترتب على هذا أمران اثنان : الأول أن يحدد الباحث ميدان بحثه بعناية، إذ من المفروض أن يمثل الموضوع المطروق صنفاً معيناً من العلاقات بين الإنسان والبيئة؛ والثاني أن تتوخى الدراسة الدقة والتحري، لتستوفي الشروط العلمية.

لكن عند الممارسة الفعلية يجد الجغرافيون البيئيون أنفسهم أمام حالتين : حالة مريحة لأنهم يقدرون على مواجهتها، وأخرى مقلقة تستعصي عليهم. فما دام الأمر يتعلق بمجتمعات متجانسة لا يطبعها التنوع والتعقيد فإن التحليل يجد في مفهوم «نمط العيش» مطية طيعة، فيأتي وصفاً دقيقاً، حيّاً لحياة الناس وما يقومون به من أعمال في الزمان والمكان؛ وإن كان هناك إهمال لجوانب أخرى من حياة المجتمع. لكن بمجرد أن تتشابك العلاقات وتتعذر قراءتها بواسطة البحث الميداني المباشر والمعاينة، يختلط الأمر على الباحث اختلاطاً فتراه في مأزق لا يعرف للخلاص سبيلا. فكيف يدرس البيئيون المدن مثلاً ؟ فهذا القصور المنهجي راجع، لا محالة، إلى قَصْر موضوع الجغرافيا وعدم اكتراث الجغرافيين لمواضيع أخرى لا تقل أهمية عن علاقة الإنسان بالبيئة.

3.3.2 ـ الجغرافيا المشهدية

عوض الانطلاق من المفهوم الغامض للأقاليم، أو من العلاقات المعقدة التي تربط الإنسان بالبيئة، تفضل الجغرافيا المشهدية موضوعاً ملموساً يسهل تحديده (لاندشَفت) ويتيسر تناوله (المعاينة). لذلك يبتدىء البحث بالوصف، فيحرك المشهد ويبعث فيه الحياة. بعد ذلك يتساءل الباحث عن عوامل بناء الشكل ليخلص في النهاية إلى إعادة تركيب القوى العاملة فيه.

إن المتأمل في هذه الاتجاهات الجغرافية قد لا يجد فيها الكثير من الفوارق. فالمنظور الأول والثالث يشتركان في فكرة تقسيم السطح، وهي فكرة ضمنية في المنظور البيئي. والمواقف الثلاثة، على كل حال، تجعل من الجغرافيا تخصصا يدرس المظاهر الطبيعية والبشرية معاً، لكنها لم تفلح في رسم مشروع عام لها. فجغرافيا أواخر القرن التاسع عشر لم تتوفر على الأسس النظرية الكفيلة برفعها إلى مراتب العلم، اللهم ما كان من بعض المحاولات في الميدان الطبيعي كمحاولات وِلْيَم دَيْفس الذي أخصب البحث، ولو أخطأت نظريته. وهذا الأمر لا يعني الجغرافيا وحدها، بل يعني أيضاً العلوم الاجتماعية قاطبة. وهي علوم لم تبلغ بعد درجة النضج الكافية التي تؤهلها إلى إرساء مبادئها العامة، باستثناء علم الاقتصاد الذي أخذ يتطور بخطى سريعة، لكنه للأسف لا يعير أدنى اهتمام للمكان نظراً لانشغاله الكلي بقضية التوازنات العامة، وهي بالطبع هواجس بعيدة كل البعد عن اهتمام الجغرافيين. أما التاريخ فلم يكن يعنيه أمر النظرية والتنظير؛ هذا في الوقت الذي ما تزال فيه السُّلالة (الإثنولوجيا) في مرحلة الحبْو والإناسة[80] (الأنثروبولوجيا) في المهد. وأما علم الاجتماع[82] الفتي فهو ظهر كجار منافس، يخاصم ويماحك. فكيف يكون إذن نموذجاً يحتذى ؟[82].

ومما لاشك فيه أن ثلاثية الرؤية للجغرافيا كانت من بين الأسباب الرئيسية التي حالت دون العمل على إرساء الأسس النظرية للمادة وتكريسها. وهو الأمر الذي لم يُقدم عليه إلا البعض، وبحذر كبير. فـ«الجغرافيا الإنسانية» لراتزل بقيت لا صدى لها لقرابة ثلاثين سنة

80

الإناسة (الانثروبولوجيا) هي «علم الإنسان من حيث هو كائن فيزيقي واجتماعي . ويتفرع من هذا العلم مجموعة من العلوم المتخصصة في دراسة الإنسان كالانثروبولوجيا الفيزيقية والانثروبولوجيا الاجتماعية والانثروبولوجيا الثقافية».

تعنى الانثروبولوجيا الفيزيقية «بدارسة وتشريح البناء الجسماني والهيكل الفيزيقي للنوع الإنساني وتتبع التطور التاريخي للتكوين العضوي والخصائص المميزة للسلالات البشرية والتي بمقتضاها يصنف العلماء الأجناس إلى سلالات وعائلات بشرية مختلفة».

أما الإناسة الإجتماعية فهي «تهتم بدراسة الأشكال الأولية البسيطة للمجتمعات الإنسانية في المراحل البدائية من تطورها الذي يظهر فيها بوضوح تكامل وحدة البناء. فهي لا تشمل إذن المراحل الأكثر تطوراً وتركيباً في نمو هذه المجتمعات. وتعتبر إلى حد ما جزءاً من الانثروبولوجيا الثقافية».

والإناسة الثقافية هي التي «تدرس الإنسان ككائن حضاري يعيش في ثقافة معينة. فتبحث في مختلف ثقافات الإنسان البدائي وعاداته وتقاليده. ويستخدمون هذا الاصطلاح في الولايات المتحدة بمعنى الانثروبولوجيا الاجتماعية وهو الاصطلاح المستعمل في انجلترا.»

بجانب هذه الفروع هناك أيضاً الإناسة الإجتماعية الوظيفية والإناسة التركيبية. وتقوم الأولى «بدراسة النظم الإجتماعية للمجتمعات المختلفة والأدوار التي تقوم بها بين مختلف النظم والأنساق في علاقتها بالبناء الكلي، وذلك للتعرف على تماسك البناء الاجتماعي واستمرار وحدته وكيانه. أما الإناسة التركيبية فهي «فرع من الانثروبولوجيا يحاول أن ينظر نظرة تكاملية إلى كل من الانثروبولوجيا الفيزيقية وعلم

بأكملها، أي إلى أن أصدر الجغرافي **جان برون*** كتابه «الجغرافيا البشرية»[83] سنة 1910. ثم بعد ذلك نشر **إيمنويل دُمَرْطون***، اعتماداً على مخطوطات حميه دُلبلاش، «مبادىء الجغرافيا البشرية». إن هذين المؤلفين وغيرهما، وإن كانت من الأهمية بمكان، فهي لا تعدو عن كونها محاولات في التصنيف أكثر مما هي اجتهادات في التفسير، ناهيك عن التنظير والتقعيد؛ إذ نجدها تستعرض طائفة من المفاهيم الغنية أحياناً، لكنها لا توظفها لبناء مشروع جغرافي.

وقد يوعز أيضا هذا القصور إلى اعتناق أغلبية الجغرافيين بحماس كبير المذهب الوضعي الذي رأوا فيه المرجع الوحيد لبناء مادتهم بناءً علمياً محترماً. لذا تراهم يعزفون عن الواقع، أو لا يولونه ما يستحق من العناية لأنه موضوع لا ينطبق عليه بسهولة نموذج العلوم الطبيعية؛ هذا النموذج الجاهز والواضح الذي أصبحت تحاكيه الجغرافيا وتضرب على وتره. فالجغرافيون حينما يتعرضون للمسألة الاجتماعية فهم لا يدرسونها إلا في مظاهرها الجلية من خلال «المشهد» غافلين أو (متغافلين ؟) الجوانب الخفية منها كالسلوك والقيّم أو صنع القرار مثلا.

تميزت الجغرافيا عند منتصف القرن بطموحات كبرى كانت تدفعها إلى نظرة شمولية للعالم. وهذا ما جعل المؤلفات العامة والمقارنة تروج رواجاً واسعاً إلى نهاية القرن. وهي مؤلفات لم تكن تدقق لا في المراجع ولا في المناهج، فالجغرافي في النصف الأول من القرن الماضي إما رحالة مكتشف، كما كان همبُلت؛ وإما معتكف، في الخزانات كما كان ريتَر.

ومن خصائص الجغرافيا في مرحلة التأسيس أنها تطرح عادة أسئلة كبرى سواء كانت هذه الجغرافيا إقليمية، أو بيئية، أو مشهدية. لكن مصدر هذه التساؤلات في الحالات الثلاث يظل الخريطة والوثيقة. والجغرافي لا يرد عن السؤال إلا بعد معاينة الميدان واستقرائه سعياً وراء فهم الأشكال نشأةً وتطوراً، مع محاولة ضبط العوامل الفاعلة فيها. ثم إنه، بحكم نزعته «الطبيعية» عندما يواجه وقائع ملموسة ينظر إليها كما هي، بدون خلفيات أو أحكام مسبقة. لذا فهو شديد الإمعان، دقيق الملاحظة، يستنطق الناس ويدون ملاحظاتهم. ثم هو حريص أيضاً على

الآثار واللغويات والانثروبولوجيا النظرية وعلوم التاريخ والثقافة.» بدوي (أحمد زكي بدوي) **معجم العلوم الإجتماعية**، مرجع سابق، ص 21.

* **Jean Bruhnes**

* **Emmanuel Demartonne**

81

«علم الاجتماع دراسة وصفية تفسيرية مقارنة للمجتمعات الإنسانية كما تبدو في الزمان والمكان للتوصل إلى قوانين التطور التي تخضع لها هذه المجتمعات الإنسانية في تقدمها وتغيرها. كما يقوم علم الاجتماع على الدراسة الموضوعية للظواهر الاجتماعية وتحليلها تحليلاً علمياً صحيحاً.» نفسه، ص 402

82

انظر الفصل الثاني، (ازدهار المدارس)، الفقرة 3.1.2.

83

Bruhnes (Jean), **La géographie, Essai de classification positive** Paris, Alcan, 1910.

تدوين الأسماء والمصطلحات المستعملة للدلالة على مشهد أو ظاهرة، أو نمط عيش. وإذا لم يجد في هذا ما يكفيه ويشفي غليله فهو يستعين بالوثائق والمستندات.

وهكذا تتكرس الجغرافيا كمهنة تتوفر على تقنيات بسيطة وأدوات لا تخلوا فعالية من شأنها أن تستنطق المشهد وتؤول التوزيعات وتحلل أنماط العيش. وهذا ما جعل الأوساط العلمية تعترف بها في النهاية كتخصص جاد ومفيد يستطيع جرد موارد الأقاليم. إلا أن هذا الحرص الشديد على جمع المعلومات جمعاً دقيقاً قد جعل البحث الجغرافي، في نهاية القرن، يفرِّط في المكتسبات الهامة للحقبة السابقة، كتفاعل المقاييس الجغرافية مثلا التي برهنت أن الفهم الصحيح للمظاهر لا يكتمل إلا بربط تلك المقاييس صغيرها بكبيرها.

وعليه، فإن الجغرافيا، في مستهل القرن، قد تبدو – وإن اقتربت أكثر من المنهج العلمي – أقل تبصراً من التي سبقتها، خاصة بين 1850 و 1880؛ وذلك لأنها لم تعد تعير الاهتمام إلى القضايا الكبرى كمشاكل القارات والدول والمناطق حتى !. فهذه الجغرافيا لا تطمئن إلى الأسلوب النظري والتأمل الفلسفي ولا تبغي عن صفتها التجريبية : أي العلمية، بديلا؛ وهو الاختيار الذي نفَّرها من تعميق دراسة الإنسان كفرد، وإهمال آليات المجتمع كنظام. ومع ذلك فإن حرصها العلمي لم يمنعها من استعمال الأوعية الفكرية الثلاثة التي استحدثها السابقون إذ تفرعت الجغرافيا وتعددت مدارسها.